من السِّمات البلاغية لأدب التوقيعات

الدكتور
عَلِى مَحْمود عبَّاس مُوسَى الصَّالِح
مُدرس البلاغة والنقد
فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا
جامعة الأزهر

العدد الثاني والعشرون
للعام ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م
الجزء الرابع
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٨م
الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

ملخص بحث

من السمات البلاغية لأدب التوقيعات .

الحمد لله ربّ العالمين ، والصَّلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

لم يحظَ النَّثر ــ بوجه عام ــ بعناية الدَّارسين مثل ما حظي به الشِّعر العربيّ على مرّ العُصور ، حيثُ منحوه القِدْح المعلَّى .

ثم إن التوقيعات الأدبية ــ بوجه خاص ــ لم تلقَ ما لغيرها من أجناس النثر الأخرى ، فظلَّت التوقيعات على كثرتها وتفرُّقها في كُتب الأدب مُهرة لم تُركب ، ودُرَّة لم تُثقب ، على الرغم من اشتمالها على ألوان البلاغة ، وفنونها .

ومن ثم كان هذا البحث : (من السِّمات البلاغية لأدب التوقيعات) محاولة للوقوف على أبرز سماتها البلاغية من خلال طول النَّظر في شواهدها ، ثم الوقوف عند كلّ سمت على حدة متَّخِذا مِن الكثرة أو اللزوم معيارًا له .

فقد أخذت الدراسة على عاتقها لَفت الأنظار إلى موقع أدب التوقيعات مِن البلاغة ، وذلك بتجلية سماته البلاغيَّة حتى تكون هذه السمات أساسا لدراسات بلاغيَّة وافية في هذا اللون الأدبي الرَّفيع .

وقد كانت تلك التوقيعات التي جمعها ابن عبد ربه الأندلسي في كتابه : (العقد الفريد) عدة البحث وعتاده ، ومقصد تلك الدراسة الرئيس ، ومحط رحلها .

وقد وقفت الدراسة على سمات ست للتوقيعات الأدبية هي : الإيجاز والتركيز والتقديم والاقتباس والتضمين والسَّجع المطبوع وحسن التقسيم وتصدير التوقيع بفعل الأمر للواحد .

وقد خلصت الدراسة إلى نتائج عدة ، منها : أن التوقيعات الأدبية عكَست ثقافة الموقِّعين ، وأبرزت مدى بلاغتهم ، وكشفت عن موهبتهم ، وبيَّنت كيف أنَّهم كانوا يمتلكون ناصية البيان. ومنها : أن التوقيعات جنس أدبي يعكِس الفطرة العربية الخالِصة في أبهى صُورها ، وأصدق مظاهرها ، حيث يترجم مدى ما وصل إليه أصحاب التوقيعات من قدرة فائقة على اختيار الألفاظ المناسبة والمعاني الثَّرة ، فقد استطاعوا أن ينتقوا الألفاظ التي تفي بالمعاني والتي تناسب الغرض الذي سيقت لأجله ، ولم تسجل هذه الدِّراسة موضعا وحيدا جانب فيه الموقِّعون الصَّواب .

ومنها أن التوقيعات الأدبيَّة اختصت بِنية وتركيبا بسمات بلاغية ، ومظاهر أسلوبية ، لا يخطئها بحال النَّاظر المتأمِّل ؛ إذ إنَّ لكلّ جِنس أدبيّ بعض السمات البلاغية والمظاهر الأسلوبية التي تميزه عن غيره ، وقد كان القرآن الكريم والشعر العربي خاصة رافدين مهمَّين لأدب التوقيعات لما للغة القرآن الكريم والشعر مِن بديع التأثير في المتلقي وقدرتهما الفائقة على الإقناع والإمتاع في آن واحد .

الدكتور
عَلِى مَحْمود عبَّاس مُوسَى الصَّالِح

Abstract

One of the rhetorical features of literature signatures.

Praise be to Allah, the Lord of the Worlds, and prayers and peace be upon the honorable messengers of our master Muhammad and his family and companions and those who follow them in charity until the Day of Judgment.

In general, prose has not been as carefully studied as Arabic poetry has received throughout the ages.

Literary signatures, in particular, have not received any other kinds of prose. The signatures of many of them have remained scattered in the literature, skilled and uncluttered, and the engravings are not punctuated, although they contain the colors of rhetoric and its arts.

Hence, this research was one of the rhetorical characteristics of the literature of signatures. It is an attempt to find out the most prominent features of the rhetoric through the length of consideration of its evidence, and then to stand at each sign separately, taking the necessary or necessary standard.

The study has taken it upon itself to draw attention to the site of the literature of signatures of the rhetoric, by the characterization of rhetorical qualities so that these features are the basis for studies and rhetorical adequate in this literary color high.

These were the signatures collected by Ibn Abed Rabbo al-Andalusi in his book (The Unique Contract), the number of

research and its equipment, the purpose of this study, the head, and the station of its journey.

The study focused on the six attributes of literary signatures: summary, concentration, presentation, quotation, inclusion, printed sufficiency, good division and export of signature by order to one.

The study concluded that the literary signatures reflected the culture of the signatories, highlighted the extent of their communication, revealed their talent, and showed how they possessed the cornerstone of the statement. Among them are: Signatures are a literary genre that reflects the pure Arab instinct in its finest form and its true manifestations. It translates the extent to which the signatories reached a great ability to choose the appropriate words and meanings. They were able to select the words that meet the meanings that are suitable for the purpose for which they were presented. This study was not recorded in a single place where the right signatories.

Literary signatures have different meanings and stylistic features that distinguish them from others. The Holy Quran and Arabic poetry were especially important references to the literature of signatures as to the language of the Holy Quran and poetry. It is wonderful to influence the receiver and their ability to both persuasion and pleasure.

Doctor
Ali Mahmoud Abbas Musa Al Saleh

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين ، والصَّلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

لم يحظَ النَّثر ــ بوجه عام ــ بعناية الدَّارسين مثل ما حظي به الشِّعر العربيّ على مرّ العُصور ، حيثُ منحوه القِدْح المعلَّى ، فقد رأيتُهم يقولون : " مِن فضائل النَّظم أن صار لنا صناعةً برأسها ، وتكلَّم النَّاس في قوافيها ، وتوسَّعوا في تصاريفها وأعاريضها ، وتصرَّفوا بحورها ، واطَّلعوا على عجائب ما استخزن فيها مِن آثار الطبيعة الشريفة ، وشواهد القدرة الصادقة ؛ وما هكذا النثر ، فإنَّه قصر عن هذه الذروة الشامخة ، والقلّة العالية ؛ فصار بذلك بذلةً لكافة الناطقين من الخاصّة والعامّة والنِّساء والصبيان " (١)

وقد نقل أيضًا أنه كان " يُقال : ما أحسن هذه الرسالة لو كان فيها بيتٌ من الشعر، ولا يقال : ما أحسن هذا الشعر لو كان فيه شيءٌ من النثر ؛ لأنَّ صورة المنظوم محفوظة ، وصورة المنثور ضائعة " (٢)

فمن الضروري شُمُول الدَّرس البلاغيّ كلّ أجناس الأدب وفُرُوعه ، ولعل هذا كان هدفا رئيسا رغبت فيه هذه الدراسة .

فالتوقيعات الأدبية ــ بوجه خاص ــ لم تلقَ ما لغيرها من أجناس النثر الأخرى ، فظلَّت التوقيعات على كثرتها وتفرُّقها في كُتب الأدب مُهرة لم تُركب ، ودُرَّة لم تُثقب ، على الرغم من اشتمالها على ألوان البلاغة ، وفنونها ، يقول ابن

---

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ــ راجعه : هيثم خليفة الطعيمي ــ ٢ / ٢٥٢ ــ ط : المكتبة العصرية ــ بيروت ــ ١٤٣٢ هـ ــ ٢٠١١ م .

(٢) السابق ٢ / ٢٥٢ .

خلدون : " كان جعفر بن يحي البرمكي [١] يوقِّع القصص بين يدي الرَّشيد ، ويرمي بالقصة إلى صاحبها ، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها علي أساليب البلاغة وفنونها ، حتَّى قيل : إنها كانت تباع كلّ قصة منها بدينار " [٢]

فالتوقيعات الأدبية كنز ثمين ، جدير به أن تصرف إليه الهمم العوالي ، ويبذل فيه الجَهد والوقت بذلا يسبر أغواره ، ويكشف أسراره ، فلم تقع عيني على دراسات بلاغيَّة في هذا الفن الخصيب اللهمَّ إلا ما نشرته مجلة جامعة دمشق في عددها الواحد والعشرين تحت عنوان : (فنّ الطِّباق في أدب التوقيعات للدكتورة منيرة فاعور) ولعلَّها كانت فاتحةَ خيرٍ ، لاحَ منها بصيص من النُّور حيث جرت تلك الدراسة في فلك فن بلاغي واحد ، ومِن ثمَّ كانت هذه الدِّراسة المتواضعة : (من السِّمات البلاغية لأدب التوقيعات) امتدادا في بابها ، لكنها لم تجرِ على منوالها ، فالغرض من هذه الدراسة تجلية سمات التوقيعات البلاغية ، ومحاولة الكشف عن مظاهر بنائها البلاغي ، من خلال التعرف على شواهد التوقيعات الأدبية في عصور الأدب المختلفة ، والتحليل البلاغي لشيء منها .

هذا ، وقد كان وراء السير في هذا الموضوع عدة أمور ، من بينها :

أولا : ندرة الدِّراسات البلاغيَّة في أدب التوقيعات .

---

(١) هو : الوزير جعفر بن يحيى بن برمك أبو الفضل أصله من الفرس .. تمكن من الرشيد وبلغ من الجاء والرفعة ما لا مزيد عليه وولي هو وأبوه وإخوته الأعمال الجليلة وكثرت عليهم الأموال . ينظر : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي ــ تح : د : عمر عبد السلام تدمرى ــ ١٢ / ٩٩ ــ ط : دار الكتاب العربي ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٧ م .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٧ ــ ط : دار القلم ــ بيروت ــ ط : خامسة ــ ١٩٨٤ م .

ثانيا : مكانة أدب التوقيعات مِن بين أجناس النثر الأدبي ، وانفراد الأدب العربي وحده به ، فهذا اللون الأدبي لا يكاد يوجد في غيره من الآداب الأخرى .

ثالثا : لَفت الأنظار إلى موقع أدب التوقيعات مِن البلاغة ، وذلك بتجلية سماته البلاغيَّة حتى تكون هذه السمات أساسا لدراسات بلاغيَّة وافية في هذا اللون الأدبي الرَّفيع .

رابعا : لأدب التوقيعات موقع جليل في النّفوس ، إذ يُمكن أن تتربَّى عليه نُفُوس النَّاشئة والصغار ، وذلك لما يشتمل عليه من توجيهات تدعو إلى مكارم الأخلاق .

هذا ، وقد خرج منهج البحث على النحو التالي :

أولا : جمع شتات التوقيعات الأدبية ــ موضع الدراسة ــ من مصادرها .

وقد كانت تلك التوقيعات التي جمعها ابن عبد ربه الأندلسي في كتابه : (العقد الفريد) عدة البحث وعتاده ، ومقصد تلك الدراسة الرئيس ، ومحط رحلها .

ثانيا : محاولة التعرُّف على سماتها البلاغية من خلال طول النَّظر في شواهدها .

ثالثا : الوقوف عند كلّ سمت على حدة متَّخِذا مِن الكثرة أو اللزوم معيارًا له .

رابعا : كما حاولت الدِّراسة جاهدة أن تقف على مظاهر كلّ ما اعتمدته هذه الدراسة سمتا مميزا لأدب التوقيعات من السَّجع والاقتباس والتقسيم ، وغيرها .

خامسا : اتكأت الدِّراسة على المنهج التحليليّ في تحليل بعض نماذج التوقيعات تحليلا يبرز هذه السمات البلاغية في ثوب قشيب .

هذا ، وقد اقتضى منهج البحث في هذا الموضوع أن يكون البحث في مبحث واحد ، تحته عدة مطالب ، تسبقه مقدمة وتمهيد ، وتعقبه خاتمة وفهرس للمصادر والمراجع .

أمَّا **المقدمة** : فاشتملت على أهمية البحث في هذا الموضوع ، ومنهج البحث وخطته .

وأمَّا **التمهيد** ففيه : إطلالة يسيرة على أدب التوقيعات .

المبحث الأول : السمات البلاغية لأدب التوقيعات ، وتحته عدة مطالب ، صوَّر فيها كل مطلب سمتا بلاغيا وظاهرة أسلوبية لأدب التوقيعات .

المطلب الأول : الإيجاز والتركيز .

المطلب الثاني : التقديم .

المطلب الثالث : الاقتباس والتضمين .

المطلب الرابع : السَّجع المطبوع .

المطلب الخامس : حسن التقسيم .

المطلب السادس : تصدير التوقيع بفعل الأمر للواحد .

هذا ، وحسبنا في هذه الدِّراسة حُسن القصد إنْ فاتنا حُسن العمل .. ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .. والحمد لله رب العالمين .

التمهيد :

إطلالة يسيرة

على أدب التوقيعات

التمهيد :

(إطلالة يسيرة على أدب التوقيعات)

تطل الدراسة برأسها هنا على بيان مفهوم فن التوقيعات في اللغة والاصطلاح :

التوقيعات في اللغة :

للتوقيع في اللغة معانٍ يصعب عدّها ، أقربها ــ في ظنِّي ــ إلى المعنى الاصطلاحي إحداث الشيء وإيجابه ، يقال : " وقَّع بالأمر أحدثه وأنزله ، ووقَع القول والحكم إذا وجب ، وقوله تعالى : وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة .

قال الزجاج : معناه ــ والله سبحانه أعلم ــ وإذا وجب القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض " (١)

والتوقيع في الكتاب : إلحاق شيء فيه بعد الفراغ منه (٢)

والتوقيع في الأصل : التأثير في الشيء ، يقال : حمار موقع الظهر ، أي أصابته في ظهره دبرة ، فسمي هذا توقيعا لأنه تأثير في الكتاب حسا أو في الأمر معنى ؛ أو في الوقوع لأنه سبب لوقوع الأمر المذكور ، أو لأنه إيقاع لذلك المكتوب في الكتاب : فتوقيع كذا بمعنى إيقاعه (٣)

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة (و ق ع) ٨ / ٤٠٣ ــ ط : دار صادر ــ بيروت ــ ط : أولى ــ من دون تاريخ .

(٢) لسان العرب مادة (و ق ع) ٨ / ٤٠٦ .

(٣) ينظر : زهر الأكم في الأمثال والحكم للحسن اليوسي ــ تح : د محمد حجي و د محمد الأخضر ٢/ ٢٢٠ ــ ط : دار الثقافة ــ المغرب ــ ط : أولى ــ ١٤٠١ ه ــ ١٩٨١ م .

أما التوقيعات في اصطلاح الأقدمين مِن الكتَّاب : فهي اسم لما يكتب في حواشي القصص كخطّ الخليفة أو الوزير في الزَّمن المتقدِّم ، وخط كاتب السِّر الآن، ثمَّ غلب حتَّى صار عَلَما على نوع خاص ممَّا يُكتب في الولايات وغيرها (١)

فالتوقيع يقصد به الكتابة على الرقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة والتحدث في المظالم وهو أمر جليل ومنصب حفيل ؛ إذ هو سبيل الإطلاق ، والمنع ، والوصل ، والقطع ، والولاية ، والعزل إلى غير ذلك من الأمور المهمات والمتعلقات السنية (٢)

فالتوقيعات : " يراد بها التعليق على الرسائل الواردة إلى الديوان بما يناسبها مع التعليل لذلك بآية قرآنية أو حكمة سائرة أو قول محكم ، من إنشاء الكاتب بأسلوب موجز دقيق ، ربما بلغ بالإيجاز حد الإعجاز " (٣)

ثمَّ إنَّ " التوقيع كان يتولاه في ابتداء الأمر الخلفاء فكان الخليفة هو الذي يوقع في الأمور السلطانية وفصل المظالم وغيرهما " (٤)

وأحيانا كان يقوم به الكتاب بين يدي الخليفة ، قال ابن خلدون : ومن خطط الكتابة التوقيع ، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجال حكمه وفصله ، ويوقع على القصص المرفوعة أحكامها ، والفصل فيها ، متلقاة من

---

(١) ينظر : صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ــ تح : عبد القادر زكار ــ ١١ / ١١٤ ــ ط : وزارة الثقافة ــ دمشق ــ ١٩٨١ م .

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١ / ١٤٥

(٣) بلاغة الكتاب في العصر العباسي ــ دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب ــ د/ محمد نبيه حجاب ص ٩٦ ــ ط : مكتبة الطالب الجامعي ــ مكة المكرمة ــ ط : ثانية ــ ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م .

(٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١ / ١٤٥ .

السلطان بأوجز لفظ وأبلغه [١] وميزة التوقيعات : الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة ، وقد تكون آية ، أو مثلاً أو بيت شعر [٢]

وامتازت التوقيعات كذلك بثراء عظيم في مفرداتها ، وإتقان محكم في تراكيبها ، وزخرف آخاذ في أشكالها ، وجمال موسيقي في جرسها ، كلّ كلمة فيها آخذة برقاب الكلمة الأخرى في صنعة أدبية متقنة [٣]

وهكذا بان لنا أنَّ التوقيعات جِنس أدبي رفيع يقصد به ــ في أخصر لفظ ــ الأجوبة على الرَّسائل ، وله سماته التي تميزه عن غيره من أجناس النثر الأخرى ، وسوف نحوم حول تلك السمات البلاغية ، مستمدين من الله العون ، وراجين منه التوفيق والرشاد .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٧ .

(٢) تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات ص ٢٢٠ ــ ط : دار نهضة مصر ــ الفجالة ــ القاهرة .

(٣) ينظر : ملخص بحث : فن الطباق في أدب التوقيعات ــ د منيرة فاعور ــ ص ١٢٤ ــ مجلة جامعة دمشق ــ العدد ٢١ ــ ٢٠١٤ م .

من السمات البلاغية لأدب التوقيعات

وفيه عدة مطالب :

المطلب الأول : الإيجاز والتركيز .

المطلب الثاني : التقديم .

المطلب الثالث : الاقتباس والتضمين .

المطلب الرابع : السَّجع المطبوع .

المطلب الخامس : حسن التقسيم .

المطلب السادس : تصدير التوقيع بفعل الأمر للواحد .

المطلب الأول :

الإيجاز والتركيز

الإيجاز سمت الكلام البليغ ورداؤه ، وهو مقصد بلاغي مُهمّ يقصده البليغ في كلامه ، حيث إنَّ الإيجاز " فضلا عن ما فيه من تخفيف يكسب العبارة قوة ويجنبها ثقل الإطالة " (١)

فالعرب كانوا يميلون إلى الإيجاز في كلامهم ، وقد خاطبهم الله في كتابه العزيز بذلك ، فقد أثر عن الجاحظ قوله : " رأينا اللّه تبارك وتعالى إذا خاطب العربَ والأَعْرَابَ ، أخرجَ الكلامَ مُخْرَجَ الإشارة والوحي والحذف ، وإذا خَاطَبَ بني إسرائيل أو حكَى عنهم ، جعلَه مبسوطاً ، وزاد في الكلام " (٢)

والمتأمِّل لأجناس النثر على اختلافها يجدها قد تلاقت عند الإيجاز ابتداء بالقرآن الكريم والحديث الشريف ومرورا بالحكم والوصايا والأمثال وانتهاء بالقصة القصيرة .

مِن أبرز السمات البلاغيَّة لأدب التوقيعات بناؤه على الإيجاز والتركيز وتكثيف المعاني في عبارات قليلة ، حتى إنَّه لو قال قائل إنَّ الإيجاز ظاهرة أسلوبية لفن النثر عامَّة ، والتوقيعات خاصَّة لم يُبعِد ، ولم يخرج عن جادّة الصَّواب ، ويشهد لذلك ما ذكره ابن سنان عن جعفر بن يحيى وهو مَن يضرب به المثل في التوقيعات أنَّه كان يقول لكتَّابه : إنْ استطعتم أن يكون كلامكم كلّه مثل

---

(١) بلاغة الإيجاز في الشعرية العربية ــ رسالة ماجستير للباحث يوسف بديدة ص ٣٠ ــ كلية الآداب ــ جامعة الحاج لخضر ــ الجزائر ــ ١٤٣٠ ه ــ ٢٠٠٩ م .

(٢) الحيوان للجاحظ ــ تح : عبد السلام محمد هارون ١ / ٩٤ ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ ١٤١٦ هـ ــ ١٩٩٦ م .

التوقيع فافعلوا [١] فقد كانت هذه إشارة من جعفر بن يحيى أبان فيها مدى كون الإيجاز مطلبا مراما للبلغاء بوجه عام ، وألمح من خلالها إلى كون الإيجاز خصيصة بلاغية لأدب التوقيعات بوجه خاص .

ثمَّ إنَّ المُطالع لنماذج التوقيعات في كلِّ زمان ومكان يجد أنَّها لم تخرج عن الإيجاز إلا نادرًا ، ومن ذلك [٢] : ما يحكي أنَّ أبا القاسم الزعفراني [٣] لما أنشد الصاحب بن عباد [٤] قصيدته التي يقول فيها :

وحاشية الدّار يمشون في ∴ صنوف من الخزّ إلا أنا

وقع الصاحب في نسختها : قرأتُ في أخبار معن بن زائدة [٥] أن رجلاً قال له : احملني أيها الأمير فأمر له بناقة وفرس وبغلة وحمار وجارية ، ثم قال:

---

(١) ينظر : سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٢٠٨ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٠٢ هـ ــ ١٩٨٢ م . وكذا : ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٢ / ٨٩ ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ من دون تاريخ .

(٢) أي : من الإطناب في التوقيع .

(٣) هو : عمر بن إبراهيم من أهل العراق شيخ شعراء العصر وبقية ممن تقدمهم واسطة عقد ندماء الصاحب . ينظر : يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي ــ تح : د : مفيد محمد قميحة ــ ٣/ ٤٠٢ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ لبنان ــ ط ــ أولى ــ ١٤٠٣ هـ ــ ١٩٨٣ م .

(٤) هو : إسماعيل بن عباد أبو القاسم الوزير المشهور بكافي الكفاة وقد كان من العلم والفضيلة والبراعة الكرم والإحسان إلى العلماء والفقراء على جانب عظيم كان يبعث في كل سنة إلى بغداد بخمسة آلاف دينار لتصرف على أهل العلم . ينظر : البداية والنهاية لابن كثير ــ ١١ / ٣١٥ ــ ط : مكتبة المعارف ــ بيروت ــ د ت .
ــ وكانت وفاته بالري في سنة خمس وثمانين وثلثمائة وكان أوحد زمانه علما وفضلا ورياسة ورأيا وكرما ينظر : مقدمة ابن خلدون ٤ / ٦٢٠

(٥) هو : معن بن زائدة بن عبد الله بن مطر الشيباني ، أبو الوليد ، أحد الشجعان الفصحاء ، وقد أدرك العصرين الأموي والعباسي ، وتوفي عام ١٥١ هـ . ينظر : الأعلام ــ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ــ لخير الدين الزركلي ٧ / ٢٧٣ ــ ط : دار العلم للملايين ــ الطبعة : الخامسة عشرة ــ ٢٠٠٢ م .

لو علمت أن الله خلق مركوبا غير هذا لحملناك عليه ، وقد أمرنا لك من الخزّ بجبّة ، وقميص ، ودراعة ، وسراويل ، وعمامة ، ومنديل ، ومطرف ، ورداء ، وكساء ، وجورب ، وكيس ، ولو علمنا لباساً آخر يتخذ من الخزّ لأعطيناكه [١]

والمتأمل لتعريفات فن التوقيعات آنفة الذكر يجد أنَّها قد أشارت إلى خصيصة الإيجاز البلاغية التي يتسم بها هذا الفن من القول .

ولا شكَّ أنَّ الإيجاز يتناسب مع هذا اللون الأدبيّ الذي يصدر عن فئة خاصَّة من النَّاس كالملوك والوزراء ، إمَّا لانشغالهم ، وإمَّا لكثرة ما يعرض عليهم مِن رسائل ، وإمَّا لأنفتهم عن إطالة الحديث مع العامَّة ، وكيف لا وقد قيل: " .. أن قلّة عدد كلمات الرِّسالة انعكاس لقيمة المُرسَل إليه في عين المُرسِل " [٢] وإمَّا لأنَّ " الإيجاز ناتج عن سليقة وفطرة تميل إلى السهولة أينما وُجدت ، ولم يكن اختيارا فنيا مقصودا لذاته ، ،إنما كان ضرورة اجتماعية وأخلاقية في المقام الأول " [٣]

فإذا كان لكلّ فنّ أدبي لون يناسبه فإنَّ الإيجاز هو الأنسب لمقام التوقيعات لوفائه بالغرض المطلوب منه ، وهو الجواب على المُرسِل في صورة تبرز تمكُّن الموقِّع مِن البيان ، ولعلَّ هذا ما جعل الموقعين ينسجون على منواله ، رحم الله

---

(١) ينظر : يتيمة الدهر للثعالبي ٣ / ٢٢٨ . ولعلَّ الصاحب بن عباد قد أطنب في توقيعه ليتلاءم التوقيع مع قول أبي القاسم الزعفراني الذي تضمَّن لفظة (صنوف من الخز) فتوقيع الصاحب لم يخرج عن ذكر صنوف الخز .

(٢) بلاغة الإيجاز في الشعرية العربية ص ١٣٣ .

(٣) بلاغة الإيجاز في الشعرية العربية ص ١٤٧ .

الزمخشري في قوله : " يجب على البليغ في مظانّ الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز ؛ فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع " (١)

ومن هذه التوقيعات التي تجلَّى فيها الإيجاز : ما أثر عن أنوشروان أنه وقع في قصة متظلم : العدل أمامك ، فالتوقيع على وجازته قد حوى الكثير من المعاني التي يقصدها صاحب الكتاب إلى أنوشروان والتي بها تُؤنَس نفسه الجامحة للإنصاف ، ورفع الظلم ، وفيه إشارة إلى العجلة في تحقيق المراد ، وكأنَّ العدل ينتظره . ومن بديع التوقيع هنا أنه جعل العدل شاخصا ماثلا بين يدي صاحب الكتاب .

ومن التوقيعات التي تجلَّى فيها الإيجاز أيضًا : ما وقّعه أبو بكر الصدِّيق إلى خالد بن الوليد رضي الله عنهما ، وقد استأذنه في مُلاقاة العدوّ : " ادن من الموت توهب لك الحياة " (٢) فالتوقيع قد جاء في ثوب الإيجاز الذي أكسبه قوة ، إذ حمل التوقيع الإذن بملاقاة العدو ، وحمَل مع هذا معاني كثيرة قصدها الصدِّيق رضي الله عنه منها تأنيس نفس خالد بن الوليد وقد أقدم على ملاقاة عدوّه ، وإبراز العاقبة التي تنتظره وهي إما الحياة الكريمة في الدار الدنيا وإما حياة الشهيد ، وبين الموت والحياة طباق ازدان به التوقيع توكيدا ، والأمر في قوله (ادن من الموت) يحمل معنى تحفيز النفس ، وحضها على القتال .

ويفهم من هذا التوقيع أمران : الأول : أن سيدنا أبا بكر أراد بتوقيعه هذا أن ينمِّي في نفوس أصحابه حبّ الشهادة في سبيل الله ، وفي سبيل نصرة الإسلام

---

(١) الكشاف للزمخشري ــ تح : عبد الرزاق المهدي ١ / ١١٣ ــ ط : دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ من دون تاريخ .

(٢) خاص الخاص لأبي منصور الثعالبي ــ شرحه وعلق عليه : مأمون بن محيي الدين ص ١٢٦ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤١٤ ه ــ ١٩٩٤ م .

والمسلمين مبينا أن في شهادتهم حياة عظيمة لهم ، فالموت بذلك بداية حياة ، حياة لا موت بعدها .

والأمر الآخر : أنه قد يكون في التوقيع توجيه عسكري مفاده أنك بمقدار ما تطلب العدو وتلاحقه تخرجه من مسرح العمليات ، وبإخراجه تبقى أنت في ساحة الحياة (١)

ومن التوقيعات التي تجلَّى فيها الإيجاز أيضًا ما وقّعه هارون الرشيد (١٧٠هـ) إلى صاحب خراسان ، وقد بدا تذمُّر الرعيَّة عليه : " داوِ جُرْحك لا يتَّسع " (٢) فتأمَّل ترَ هارون الرشيد قد ألبس التوقيع ثوب الكناية معتمدا على ذكاء عامله وفطنته لما يراد منه ، وفيه من البلاغة ما لا يخفى ، فـ " البليغ حقاً هو الذي يُحْسِنُ الملاءَمَةَ بين أسلوبه البياني وبين الهدف الذي يقصده ، والموضوع الذي يتحدّث فيه ، ووضع المخاطب الذي يُوَجِّهُ له كلامه ، وحاله التي هو عليها ، وسائر الأمور التي يمكن أن يُلائِمَها أسلوب من الكلام ولا يلائمها أسلوب آخر " (٣) والإيجاز ــ كما لا يخفى ــ رداء التعريض ، فهارون في توقيعه يأمر عامله أن يجتهد في إصلاح ما فاته قبل فوات الأوان ، وأن يحسن معاملة الرعية ، ويحمل التوقيع في طياته التحذير من عاقبة عدم تدارك أمره ، كل هذا حمله التوقيع الذي صاغه في ثوب إيجاز القصر . ومن جمال

---

(١) ينظر : فن الطباق في أدب التوقيعات ــ د منيرة فاعور ــ ص ١٢٩ ــ مجلة جامعة دمشق ــ العدد ٢١ ــ ٢٠١٤ م .

(٢) ينظر : العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ــ تح : د عبد المجيد الترحيني ٤ / ٢٩٦ . ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٠٤ هـ ١٩٨٣ م .

(٣) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد ، للدكتور/عبد الرحمن حسن حَبَنَّكة الميداني ص ٧٠ ــ ط : دار القلم ــ دمشق ــ ط : أولى ــ ١٤١٦ هـ ــ ١٩٩٦ م .

التوقيع إخراجه كذلك في ثوب الكناية حيث تراها أبرزت المعقول في ثوب المحسوس ، وأرتك عاقبة إهمال الرعية في صورة أكثر وضوحا وبيانا .

ومن التوقيعات التي تجلَّى فيها الإيجاز أيضًا ما وقّعه زِياد بنُ أبيه في قصة مُتظلِّم : كُفِيتَ [١] حيث ترى التوقيع على وجازته حمل ردّا شافيا مِن شأنه تأنيس نفس المتظلِّم وتثبيته ، وفيه الدلالة على إنصافه والتعهُّد برفع الظُّلم عنه ، وقد كان لبناء الفعل لما لم يُسمَّ فاعله مِن الإشارة إلى عظم الكفاية وأنَّها بلغت النِّهاية ما لا يخفى ، وفيه أيضا الإشارة إلى أنَّ الكفاية صارت مِن عظيم ، قادر ، أمره مطاع ، وقضاؤه نافذ . ثمَّ إنَّك تجد دقة حسنة في إيثار التعبير بالفعل (كفى) ناسبت حال المتظلِّم وحال الموقِّع في آن واحد ، فالكفاية تعني : " الكفاية : ما فيه سدّ الخلة وبلوغ المراد في الأمر " [٢] وقال البقاعي : الكفاية : وجود الشيء على مقدار الحاجة " [٣]

ومن التوقيعات التي تجلَّى فيها الإيجاز أيضًا ما وقَّعه جعفر بن يحيى [٤] لعامل كثُرت منه الشَّكوى : كثُر شاكوك ، وقلَّ شاكرُوك ، فإما اعتدلْت ، وإِمَّا اعْتَزَلْت[٥] فالتوقيع جاء في ثوب الخبر ، ولا شك أن إيثار التعبير بالخبر دون

---

(١) ينظر : العقد الفريد ٤ / ٣٠٠

(٢) مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهاني ــ تح : صفوان عدنان داوودي ــ مادة (كفى) ــ ط : دار القلم ــ دمشق ــ ط : رابعة ــ ١٤٣٠ ه ــ ٢٠٠٩ م .

(٣) نظم الدرر للبقاعي في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعي ١٠ / ٣٦٨ ــ ط : دار الكتاب الإسلامي ــ القاهرة .

(٤) هو : جفعر بن يحيى بن خالد البرمكي ، أبو الفضل وزير الرشيد العباسي ، وأحد مشهوري البرامكة ومقدميهم ، ولد ونشأ في بغداد ، واستوزره هارون الرشيد ، وكان يدعوه أخي ، وكانت وفاته عام ١٨٧ هـ . ينظر : الأعلام للزركلي ٢ / ١٣٠

(٥) ينظر : العقد الفريد ٤ / ٣٠٢

الإنشاء في النثر بعامة ، وفي التوقيعات بخاصة كثير ، ذلك لأنَّ الخبر يتفق مع طبيعة التوقيع حيث إنَّ الجملة الخبرية تحتمل الصدق والكذب فهي الأنسب لتصوير الواقع ، والأوقع لسرد الحجة والدليل ، دون الإنشائية التي تهدف في الغالب إلى الإثارة والتأثير في النفوس ، وقد حمَل التوقيع في طيَّاته الإخبار بتذمُّر الرَّعيَّة الذي من شأنه كثرة الشكاية وقلة الشكر ، وأفاد التهديد بمعاقبته بالعزل عن مكانه إنْ لم يسوِّ بين رعيته .

هذا ، وقد كان للمقابلة بين كثرة الشِّكاية ، وقلة الشُّكر ، في قوله : (كثُر شاكوك ، وقلَّ شاكرُوك) غرض قصده المُوقِّع ، حيث صوَّرت المقابلة حال الرعية أتمّ تصوير ، وأبرزت التفاوت بين حال الشكر وحال الشكاية ، وأنَّ بينهما بونا بعيدا قلَّة وكثرة ، ولا شكَّ أنَّ للمقابلة مِن التأثير في نفس السَّامع ما لا يخفى .

وقد كان للجناس المضارع [(١)] في قوله : (فإما اعتدلْت ، وإمَّا اعْتَزَلْت) من تزيين التوقيع ما لا يخفى حيث وقع الجناس عفوا من غير تكلُّف ، كما أفاد الجناس قُرب ما بين الاعتدال والاعتزال ، فالاعتدال قريب بين يدي العامل ، وذلك بالاجتهاد لما يُصلح شؤون الرَّعية ، والأمر بالعزل قريب بين يدي جعفر إن لم ينزجر العامل ، فتشابه اللفظتين في البناء يوحي بذلك ، ويشي كذلك بأنَّ قيام العامل بعمله أو عزله سواء عند جعفر ، وفي هذا مِن التهديد والزَّجر ما لا يخفى.

---

(١) الجناسُ الْمُضَارع هو ما اختلف فيه اللّفظانِ المتشابهان في نوع حرف واحدٍ منهما مع تقاربهما في النطق ، في الأول أو الوسط أو الآخر . ينظر : البلاغة العربية ٢ / ٤٩٤

ومن التوقيعات التي تجلَّى فيها الإيجاز أيضًا ما وقعه هارون الرَّشيد وقد رفع إليه حال البرامكة بقوله : " أنبتتهم الطَّاعة وحصدتهم المعصية [١] وإذا ما تأمَّلت التوقيع تبدَّى لك جمال الإيجاز حيث كان التوقيع على وجازته مصوِّرا حال البرامكة أتمّ تصوير وكاشفا لما يدور بنفس الرَّشيد تجاههم ، وكأنَّه يوجِّه عامله بالخلاص منهم والقضاء عليهم ، وقد بُني التوقيع على صورة بيانية تكشف عن بلاغة الرشيد وعامله حيث " شبه البرامكة وقد ظهروا بسبب إخلاصهم بالبذور التي تنمو وتترعرع ، ثمّ شبههم وقد نكبوا بسبب تمردهم وخيانتهم بالزروع التي تحصد ، ثمّ حذف المشبه به في كل من الصورتين ، وأبقى في الكلام ما يدل عليه وهو أنبتت ، وحصدت ، وهما استعارتان مكنيتان ، سر جمالهما أنهما يظهران أثر الطاعة ، وأثر المعصية في صورة مادية ملموسة هي صورة البذور وهي تنمو ، والزروع وهي تحصد " [٢] ولا شك أنَّ للصورة البيانية هنا أثرًا واضحًا في تأكيد المعنى وتثبيته في النفس ، فالاستعارة ــ وهذا من أغراضها ــ أظهرت المعقول في صورة مبصرة .

ولمَّا كان الغرض مِن التوقيع تصوير حال البرامكة تجد أنَّ الرَّشيد قد استعان بالمقابلة لمَا للجمع بين المتضادات من قدرة فائقة على تأكيد المعانى وتوضيحها ، بل إنَّ التضاد يعتبره أرسطو وسيلة من وسائل الإقناع [٣] والمقابلة تجعلك تشعر ــ على حد تعبير سيد قطب عن أسلوب الرافعي ــ أنَّ الجمل ينبع ذيلها من رأسها والعكس .

---

(١) ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٩٦

(٢) ينظر : مقال بعنوان : فن التوقيع ــ الموسوعة الحرة ويكيبيديا ــ نوفمبر ٢٠١٥ م .

(٣) ينظر : الخطابة لأرسطو طاليس ــ تح : عبد الرحمن بدوي ــ ص ٧ ــ الترجمة العربية القديمة ــ ط : وكالة المطبوعات بالكويت ودار القلم ببيروت ــ ١٩٧٩ م .

وقد حقَّقت المقابلة هنا نوعًا من " التناغم والتناسب في العبارتين ، هذا التناسب الذي رُكِّب تركيبًا عفويًا طبيعيا لا جفاء فيه ، ولا تكلُّف ، ولا قسر ؛ فأصابنا بهزَّة من الأريحيَّة التي ما كانت تحدث لولا ذاك التناسُب والتناغم بين الهيئتين المُتضادتين " (١) فلا شكَّ أنَّ المقابلة قد كست التوقيع كساء قشيبًا لمجيئها خالية من معرَّة التكلَّف الذَّميم .

رحم الله حازم القرطاجني القائل : " إن للنفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها ، والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها تحريكاً وإيلاعاً بالانفعال إلى مقتضى الكلام ، لأن تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعاً من سنوح ذلك لها في شيء واحد. وكذلك أيضاً مثول الحسن إزاء القبيح أو القبيح إزاء الحسن مما يزيد غبطة بالواحد وتخلّياً عن الآخر لتبين حال الضد بالمثول إزاء ضده ، فلذلك كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجيبا " (٢)

هذا ، وقد ورد التوقيع بحرف واحد ، كتب بعض أتباع الصاحب بن عباد إليه رقعة في حاجة ، فوقع فيها ، ولما وردت إليه لم ير فيها توقيعا وقد تواترت الأخبار بوقوع التوقيع فيها ، فعرضها علي أبي العباس الضبي ، فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع ، وهو ألف واحدة ، وكان ختام الرقعة (فإن رأى مولانا أن ينعم بذلك فعل) وأثبت الصاحب أمام (فعل) ألفاً يعني

(١) ينظر : فن الطباق في أدب التوقيعات ــ د منيرة فاعور ــ ص ١٣٦ .
(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ــ تقديم : محمد الحبيب ابن الخوجة ص ٤٥ ــ ط : دار الغرب الإسلامي ــ بيروت .

(أفعل) [١]

فالإيجاز ــ كما ترى ــ خاصية بلاغية لازمت التوقيعات ، ولم تفارقها بحال ، فكلّ توقيع تجده قد اكتسى حلّته مِن هذا اللون البلاغي ، بل كان الإيجاز أبًا لغيره من فنون البلاغة التي جاورته ، وقد أضفى عليها كثيرا من بهائه ورونقه ، وأكسبها مزيَّة التعرِّي من التكلُّف .

---

(١) ينظر : معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ــ تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ٤ / ١٢٠ ــ ط : عالم الكتب ــ بيروت ــ ١٣٦٧ ه ــ ١٩٤٨ م .

ــ ولا يخفى على ذي عينين أنَّ الإيجاز سمت تتَّسم به رسائل الملوك عامَّة ، فهو يدل على أنهم ملكوا ناصية البيان ، ذكر القلقشندي أنَّ الإيجاز يستحسن في مواضع : منها : أن يكون المكتوب عن السلطان في أوقات الحروب إلى نواب الملك ...

ــ ومنها : أن يكون ما يكتب به عن السلطان خبراً يريد التورية به عنه وستر حقيقته ، كإعلامهم كالحوادث الحادثة على الملوك ، والنوائب الملمة بالدولة من هزيمة جيش ، أو تغيير رسم ، أو إحداثه ، أو تكليف الرعية ما لا يسهل عليها تكليفه وما أشبه ذلك ...

ــ ومنها : أن يكون المكتوب به عن السلطان أمراً أو نهياً . قال في مواد البيان : فحكمها حكم التوقيعات الوجيزة الجامعة للمعاني ، الجازمة بالأمر أو النهي ، اللهم إلا أن يكون الأمر أو النهي مما يحتاج إلى رسوم ومثل يعمل عليها ، فيحتاج إلى الإطالة والتكرير ، بحسب ما يؤمر به وينهى عنه دون الحذف والإيجاز . ينظر : صبح الأعشى للقلقشندي ٦/ ٣٠٤ .

المطلب الثاني :

التقديم

التقديم أحد السمات البلاغية لفنّ التوقيعات ذلك لأنَّ التقديم آلة طيعة يسخِّرها دوما البليغ للتعبير عن معانٍ دقيقة يقصدها ، ولا شكَّ أنَّه يضفي على الكلام من سِحره ورَونقه ، لما له مِن قيم ومقصودات بلاغيَّة كثيرة يحتاج إليها البليغ ، ويفطِن إليها المُتأمِّل البصير بجواهر الكلام .

يقول الإمام عبد القاهر ــ رحمه الله ــ " التقديم بابٌ كثيرُ الفوائد جَمٌّ المحاسن واسعُ التصرُّف بعيدُ الغاية لا يزالُ يَفْتَرُّ لك عن بديعةٍ ويُفضي بكَ إلى لطيفةٍ ولا تزالُ ترى شِعراً يروقُك مسمَعُه ويَلْطُف لديك موقعُه ثم تنظرُ فتجدُ سببَ أنْ راقك ولُطف عندك أن قُدِّم فيه شيءٌ وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكان " (١)

ورحم الله الزركشي القائل حين ذكر التقديم : " هو أحد أساليب البلاغة فإنهم أتوا به دلالة على تمكّنهم في الفصاحة ، وملكتهم في الكلام ، وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع ، وأعذب مذاق " (٢)

فالتقديم ثوب بلاغي كُسيت به الكثير من التوقيعات ، وكان سمتا تعرف به؛ ذلك لأنَّ التقديم يُعدّ " مظهرا من مظاهر كثيرة تمثل قُدرات إبانة أو طاقات تعبيرية يديرها المتكلِّم اللَّقِن إدارة حيَّة وواعية ؛ فيسخرها تسخيرا منضبطا للإبانة عن معانيه ومقاصده ومواقع الكلمات في الجملة عظيمة المرونة كما هي

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ــ قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر ــ ص ١٠٦ ــ ط : مطبعة المدني بالقاهرة ــ ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢ م .

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ــ تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ٣ / ٢٣٣ ــ ط : دار المعرفة ــ بيروت ــ ١٣٩١ هـ .

شديدة الحساسية ، وأيّ تغيير فيها يحدث تغييرات جوهرية في تشكيل المعاني وأحوالها وصورها وظلالها " [١]

ولو كانت مواقع الكلمات غير قابلة للتغيير لكان ذلك عِيًّا في اللغة وعجزًا قاهرا في اللسان يحبس أنبل ما تشعر به النفس الإنسانية من حسٍّ دقيق واختلاجة خفيَّة ومعنى غامض لا سبيل إلى أن تركب متن الكلمة وأن تبتلعها في داخلها وتفصح عنها في الأداء المبين [٢]

فالنظرة الفاحصة للتوقيعات قد بيَّنت أنَّ كثيرًا منها كان للتقديم أثره البيِّن في التعبير عن مقصود المُوقِّع ، وقد تعدَّدت صور التقديم في التوقيعات ، وقد كان وراءها أسرار بلاغية كالعناية والاهتمام والاختصاص ، وغيرها ، وسوف نميط اللثام عنها .

فمن التوقيعات التي تجلَّى فيها التقديم ما وقَّعه علي بن أبي طالب إلى طلحة بن عبيد الله : [٣] والحَكَمُ بالتحريك الحاكم [٤] فالتقديم هنا أفاد العناية

---

(١) ينظر : دلالات التراكيب ــ دراسة بلاغية د محمد محمد أبو موسى ص ١٧٦ ــ ط : مكتبة وهبة ــ القاهرة ــ ط : ثالثة ــ ١٤٢٥ ه ــ ٢٠٠٤ م .

(٢) ينظر : السابق ص ١٧٧

(٣) ينظر : المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ٢ / ١٨٣ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : ثانية ــ ١٩٨٧ م .

ــ وهذا المثل مما زعمت العرب أنه ورد عن ألسن البهائم ، قالوا : أن الأرنب التقطت تمرة فاختلسها الثعلب فأكلها ، فانطلقا يختصمان إلى الضب ، فقال الأرنب : يا أبا الحسل فقال : سميعاً دعوت . قالت : أتيناك لنختصم إليك . قال : عادلاً حكمتما . قالت : فاخرج إلينا . قال : في بيته يؤتى الحكم . قالت : إني وجدت تمرة . قال : حلوة فكليها. قالت : فاختلسها الثعلب. قال : لنفسه بغى الخير. قالت : فلطمته. قال : بحقك أخذت . قالت : فلطمني . قال: حر انتصر . قالت : فاقض بيننا . قال: قد قضيت . فذهبت أقواله كلها أمثالاً .

(٤) لسان العرب ــ مادة (ح ك م)

والاهتمام بشأن المكان الذي تجرى فيه الخصومة بين المتخاصمين ؛ وأفاد أنَّ المكان ركن ركين مِن أركان التقاضي ، وأفاد التقديم كذلك الاختصاص فلعلَّه أراد أن يخصّ بيت الحاكم مكانا للمخاصمة لا بيت أحد المُتخاصمين ذلك .

وقول المُوقِّع (أمير المؤمنين) : (في بَيْتِه يُؤْتَى الحَكَمُ) فصيح ، وإن أُضمر قبل الذِّكر ؛ لأنَّ " التقدير (يؤتى الحكمُ في بيتهِ) فالذي قامَ مقامَ الفاعلِ ظاهرٌ ، وهو (الحكمُ) ولم تقدم ضميراً على ظاهرٍ مرتبتُه أنْ يكون قبل الظاهر فإن قلت : (في بيتِ الحكمِ يؤتى الحكمُ) جاز أن تقول : (يؤتى) وتضمر استغناءً عن إظهاره إذ كان قد ذكره " [١] ثمَّ إنَّ الإضمار قبل الذِّكر واقع في كلام العرب ، كقولهم : " في بيته يؤتى الحكم " قال تعالى : فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى [٢] وقال زهير :

فَمَنْ يلقَ يَوماً علَى علَّاتِهِ هَرِمًا ∴ يلق السَّماحَة منه والنَّدى خُلُقا [٣]

ومن التوقيعات التي كان للتقديم سحره وكان وراءه غرض مقصود : ما وقعه علي بن صلاح الدين يوسف ملك الشام إلى الإمام الناصر لدين الله ، يشكو أخويه أبا بكر وعثمان ، وقد خالفا وصية أبيهم له :

مولاي إن أبا بكر وصاحبه ∴ عثمان قد غصبا بالسيف حق علي

وكان بالأمس قد الاه والده ∴ في عهده فأضاعا الأمر حين ولي

فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي ∴ من الأواخر ما لاقى من الأول

---

(١) الأصول في النحو لابن السراج النحوي ــ تح : د عبد الحسين الفتلي ــ ٢ / ٢٣٩ ــ ط : مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط : الثالثة ــ ١٩٨٨ م .

(٢) سورة طه : ٦٧

(٣) ينظر : التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للرازي ٢ / ٣٨ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢١ هـ ــ ٢٠٠٠ م .

إذ خالفـــاه وحـــلا عقـــد بيعتـــه ∴ والأمـر بينهمـا والـنص فيـه جلـي

فوقع الخليفة الناصر على ظهر كتابته بهذه الأبيات :

وافَى كتابُـك يـا ابـنَ يوسـفَ منطقـا ∴ بـــالحق يخـــبر أن أصـــلك طـــاهر

منعـــوا عليـــاً إرثـــه إذ لم يكـــن ∴ بعـــد الـــنبي لـــه بيثـــرب ناصـــر

فاصـــبرْ فـــإنَّ غـــداً عليـــه حســـابَهم ∴ وابشرْ فناصرُك الإمامُ الناصرُ(١)

ففي قول الموقِّع : (فاصبرْ فإنَّ غداً عليه حســابَهم) تجد الظرف قد قُدِّم على الجملة الاسمية (عليه حسابهم) وذلك " للفت انتباه الشـاكي إلـى قـرب إنصافه منهم استجابة لشكواه ، وهو تقديم يناسب حالته ، فهو بحاجة إلـى مـا يطمئنه إلى تلك الاستجابة السريعة ورفع الظلم عنه ، وهذا الأمر متعلق بالظرف لا بغيره من عناصر الجملة " (٢)

وأجد هنا للتقديم معنى آخر قصده صاحبه وهو التهديد والوعيد بالمشكو، ولاسيَّما قد تآزرت بنية التوقيع على ذلك ، فلفظ (غدا) لا يخصّ اليوم الذي يتلو حاضره فربما قصد غدا البعيد ، كما أنَّ تقـديم الخبـر (عليـه) علـى الاسـم (حسابهم) يشي بذلك ، حيث أفاد التقديم هنا الاختصاص ، وإذا كان التعبير قد أفاد أنَّ الحساب مختصّ بالله سبحانه أو بالنبي عليه السلام أو بملك الشام فيلزم منـه شدَّة الحساب ، وأنَّ المشكو مؤاخذ لا محالة ، ثمَّ إنَّ مجيئ الخبر مؤكَّدًا بـ (إنَّ) يجري مع هذا القصد ، ويُفهم منه كذلك حرص الموقع على أن يؤنس بالتوكيـد نفس المخاطب ، ومما يؤكِّد أنَّ الغرض مِن قول الموقع (فاصبرْ فإنَّ غداً عليـه

(١) الكشكول ــ بهاء الدين العاملي ــ تح : السيد محمد السيد حسين المعلـم ــ ٢ / ٦٠٦ ــ ط: المكتبة الحيدرية ــ قم المقدسة ــ ط : أولى ــ ١٤٢٧ هـ .

(٢) التقديم والتأخير في التوقيعات (دراسة نحوية) للباحث : عيد سالم العرجـان ص ٦٢ ــ رسالة ماجستير ــ جامعة مؤتة ــ الأردن ــ ٢٠٠٦ م ــ

حســـابَهم) التهديد والوعيد قوله في عجز البيت : (وابشرْ فناصـــرُك الإمـــامُ الناصرُ) وهذا القول خصَّه الموقِّع لتأنيس نفس المخاطب وتسكينه ، ولاسيَّما قد صدَّره بلفظ (أبشر) وأعقبه الإخبار بنصرته في ثوب القصر حيث جـــاء طرفـــا الجملة الاسمية معرَّفين أحدهما عرِّف بالإضافة ، والآخر بالألف واللام .

إذا فقول الباحث : (وهذا الأمر ــ والإشارة للفت الشـــاكي إلـــى قـــرب إنصافه ــ متعلق بالظرف لا بغيره من عناصر الجملة) يجانبه الصواب فعناصـــر الجملة كلها ــ كما أسلفنا ــ تآزرت على إبراز معنى التهديد والوعيد الـــذي لـــم يشر إليه الباحث لا من قريب أو بعيد وإبراز معنى التأنيس والتسكين الذي مِـــن شأنه لفت الشَّاكي إلى قُرب إنصافه .

وقد جاء التوقيع هنا على صورة أبيات شعرية نظمهـــا الموقـــع ، إذ إنَّ الشعر الذي يرد في هذا الباب صنفان : " الصنف الأول : الشعر الذي يتمثل بـــه الموقِّعون من شعر الشعراء الآخرين وهو ما نعتبره من مصادر التوقيعات ، أمَّـــا الصنف الآخر هو ما ينشئه الموقع من شعر في توقيعه ردّا على الرقعة التي ترفع إليه ، خاصة إذا كانت هذه الرُّقعة شعرا .. وهذه لا تعدّ من مصادر التوقيعـــات ، بل هي مِن إنشاء الموقّع نفسه " [١]

ومِن التوقيعات التي برزت فيها خاصية التقديم ما وقَّعه أنوشـــروان فـــي قصة رجل سعى إليه بباطل : باللسان احفظ رأسك [٢] حيث قدّم الجار والمجـــرور على عامله لإفادة الاختصاص بإبراز أنَّ اللسان وحده الذي يحفظ للمخاطب حياته، وهذا يلزمه الكفّ عن اتِّهام النَّاس بالباطل ، وفي التوقيع مِن التهديد والوعيد ما لا يخفى .

---

(١) التقديم والتأخير في التوقيعات (دراسة نحوية) للباحث : عيد سالم العرجان ص ٢٠ .
(٢) العقد الفريد ٤ / ٣٠٧

وقد جاء تقديم الجار والمجرور (باللسان) لأنَّه المسؤول دون غيره من الجوارح بالسعاية بالباطل ، فللسان مزيد اختصاص بالغرض المذكور ، فقد عُدّ من أغراض التقديم : أن يكون الخاطر ملتفتا إليه والهمَّة معقودة به [١]

هذا ، ومن صور التقديم في باب التوقيعات : تقديم المسند إليه على مسنده ، ومن ذلك ما وقَّعه عمر بن عبد العزيز ، وقد كتب إلى الوليد بن عبد الملك ــ وعمر عامله على المدينة ــ فوقّع في كتابه : الله أعلم أنك لست أول خليفة تموت [٢] فترى أنَّه قد قدّم المسند إليه على مسنده لتقوية الحُكم وتقريره ، وهذا غرض مقصود من الموقِّع ، وقد عُرِّف المُسند إليه هنا بالعلمية لإحضاره في ذهن السامع ابتداء بحيث لا ينصرف الذِّهن إلى غيره .

ومِن صُور التقديم في باب التوقيعات : تقديم المُسند إليه على الخبر الفعلي ، ومن ذلك ما وقَّعَه عمر بن عبد العزيز في رقعة امرأة حُبس زوجها : الحقُّ حبَسه [٣] والتقديم كان لإفادة الاختصاص ، وذلك بإبراز أنَّ الحق مختص دون غيره بالفعل وهو الحبس ، والإسناد هنا مجازي ، فالحق سبب للحبس ، وليس فاعلا حقيقيا له ، والغرض المُبالغة في تصوير تجاوز الزَّوج حتَّى إنَّ الموقع جعل الحق فاعلا ادِّعائيا ، ووراء الإسناد المجازي غرض آخر قصده الموقِّع وهو نفي التُّهمة عن نفسه تراهم يقولون : فلان قتله جهله وأهلكه غروره وليس غرضهم إلا تبرئة القاتل ، وقد جاء تقديم المُسند إليه على الخبر الفعلي لتنزيل المخاطب منزلة من يجهل ذلك حيث يؤثر هذا التَّركيب في مقام مُواجهة الشكّ في نفس المُخاطب فيأتي الأسلوب لتوكيد الحكم وتقريره .

---

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣ / ٢٣٥
(٢) العقد الفريد ٤ / ٢٩١
(٣) العقد الفريد ٤ / ٢٩١

هذا ، فملاك الأمر في هذا الباب القول بأنَّ التوقيعات الأدبية قد اشـــتملت على صور التقديم على تنوّعها وكثرتها ، وهذا يشي بأنَّ المُوقِّعين أنفســـهم قـــد عرفوا فضل التقديم وتأمَّلوا ما وراء التقديم مِن أسرار بلاغية ومزايـــا جماليـــة يقصدها هدفا ويرجوها غاية البصير بجواهر الكلام .

المطلب الثالث :

الاقتباس والتضمين .

لا يختلف اثنان على أنَّ الاقتباس من السمات البلاغية للتوقيعات ، إذ كان الاقتباس الثوب القشيب الذي ازدانت به التوقيعات الأدبية في كل مصر وعصر ، فالموقِّع إذ يقتبس مِن النَّظم الكريم أو الحديث الشريف فإنَّما يزيِّن توقيعه بعقود الدُّر والياقوت .

والاقتباس في اصطلاح البلاغيين معناه : أن يضمن الكلام شيئا من القرآن أو الحديث لا على أنه منه [١]

وللاقتباس أو التضمين قيمة بلاغية إذ هو مما يزيد الكلام حلاوة ، ويكسبه رونقا طلاوة [٢] مع اعتبار أنه وغيره من المحسنات البديعية له مقام يتطلبه ويقتضيه ، وليس حلية ظاهرة ، وسوف نبرز ذلك في موضعه مِن البحث .

فالناظر بتأمل للمحسنات البديعية على اختلافها وتنوعها يجد أن " جمهورها الغالب وثيق الصلة ببلاغة الكلام ، وأن مكانه من الغرض ومحله من التحسين ذاتي أصيل ، لا شائبة للعرضية فيه ، مادام مقياس الذاتية والعرضية عند علماء البلاغة هو اقتضاء المقام أو عدم اقتضائه " [٣]

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ــ تح : الشيخ بهيج غزاوي ص ٣٨١ ــ ط : دار إحياء العلوم ــ بيروت ــ ط : رابعة ــ ١٤١٩ هـ ــ ١٩٩٨ م .

(٢) الإكسير في علم التفسير لسليمان بن عبد القوي الطوفي ــ تح : د : عبد القادر حسين ــ ص ٣٠٩ ــ ط : مكتبة الآداب (علي حسن) ــ القاهرة .

(٣) الصبغ البديعي في اللغة العربية د أحمد إبراهيم موسى ١ / ٤٩٨ ــ ط : دار المكتبة العربية ــ القاهرة ــ ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٩ م .

ويحسن بي في هذا الصدد الاستشهاد بقوله صلى الله عليه وسلم حين دخل خيبر : الله أكبر ! خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين أفيكون غرضه صلى الله عليه وسلم من هذا الاقتباس هو مجرد الحسن وتزويق الألفاظ أم أن المقام مقام تهديد وفخر وإظهار للقوة وإرهاب للعدو وتلويح للنصر وتفاؤل به ؟ وأنه لا شيء أقوم بهذه المعاني من قوله عليه الصلاة والسلام مقتبسا : (إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين) [١]

والاقتباس من القرآن على ثلاثة أقسام : مقبول ومباح ومردود ، **فالأول** ما كان في الخطب والمواعظ والعهود ومدح النبي ونحو ذلك .

والثاني : ما كان في الغزل والرسائل والقصص .

والثالث على ضربين : **أحدهما** : ما نسبه الله تعالى إلى نفسه ، ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه ، كما قيل عن أحد بني مروان أنه وقع على مطالعة فيها شكاية من عماله : (إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم)

والآخر : تضمين آية كريمة في معنى هزل ، ونعوذ بالله من ذلك ، كقول القائل :

أَوْحَى إلى عُشّاقِه طرْفُه ∴ هيهاتَ هيهاتَ لِمَا تُوعَدونَ

وردفه ينطق من خلفه ∴ لمثل هذا فليعمل العاملون[٢]

أمَّا التضمين فهو : أن يضمن الشعر شيئا مِن شعر الغير ، مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهورا عند البلغاء [٣]

---

(١) مجلة جامعة الإمام ــ العدد ٤٢ ــ ربيع الآخر ١٤٢٤ هـ ــ بحث بعنوان : الاقتباس عند البلاغيين ــ أنواعه وأحكامه د عبد المحسن عبد العزيز العسكر ص ٣٩٩

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي ٢ / ٤٥٥ ــ ط : دار ومكتبة الهلال ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٩٨٧ م .

(٣) الإيضاح للخطيب القزويني ص ٣٨٣

هذا ، وقد فرّق الدرس البلاغي الاقتباس عن التضمين ، لـدواع تمس المعتقدات إذ تقدس النصوص الدينية على سواها ، لكن من ناحية المنهج فإنه لا يوجد فرق بين توظيف النص القرآني أو الحديث الشريف أو النص الأدبي (١)

والاقتباس في باب التوقيعات قد تنوَّعت صوره وتعدَّدت أشكاله ، فالموقِّع يقتبس ما يتلاءم مع مقام التوقيع وحال الموقَّع له ، فتجده حينا يقتبس آية بأكملها ، وتارة يقتبس ذيل الآية فحسب ، وتارة أخرى يقتبس صدرها وهكذا .

كما أنَّ الاقتباس في باب التوقيعات له صورتان : الأولى : الاقتباس النصي وهو ما يمكن أن نطلق عليه الاقتباس التام أو الكامل ، وهذا هو الكثير الغالب . والأخرى : التصرف في النص المقتبس بوجه من الوجوه ..

من أجمل الاقتباس في أدب التوقيعات توقيع الرشيد ، وقد كتب إليه متملك الروم : إني متوجه نحوك بكل صليب في مملكتي ، وكل بطل في جندي ، فوقع في كتابه : وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٢)

كلام الآية الكريمة فيه تعريض بالوعيد ، كما يقول الطَّاهر بن عاشور(٣) وقد وقع موقعه وناسب الحال ، فصاحب الروم يشتم في كلامه : (إنِّي متوجِّه نحوك بكلّ صليب في مملكتي ، وكلّ بطل في جندي) التَّهديد ، وقد جاءت عبارته ــ على ما ترى ــ مؤكَّدة لغرض أن يبث في نفس هارون الرَّشيد الذُّعر والخوف

---

(١) ينظر : الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة ــ دراسة دلالية جمالية ــ د خالد كاظم حميدي ــ ص ١٨ ــ كلية الشيخ الطوسي ــ جامعة النجف .

(٢) العقد الفريد ٤ / ٢٩٧ والآية في سورة الرعد : ٤٢
ــ المراد بالدار في الآية الكريمة : الدنيا ، وعاقبتها وعقباها : أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقي الملائكة بالبشرى عند الموت . ينظر : الكشاف ٣ / ٤١٥

(٣) ينظر : التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور ــ ط : دار سحنون ـــ تونس ـــ ١٩٩٧ م .

ولكن هيهات هيهات لقادة الإسلام الذين تمكَّن الإيمان في قلوبهم إذ جاءه توقيعه (وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ) ردا قاسيا على كتاب ملك الروم ، فلفظ الآية الكريمة يحمل معاني التهديد والوعيد والزَّجر ، حيث جاء لفظها مؤكَّدا بالسين الداخلة على الفعل المضارع ، فالسِّين هنا جاءت " لتأكيد وقوعِ ذلك وعلمِهم به حينئذ " [١] وهذا يشي بأن لفظ الآية الكريمة قد ورد في صورة أكثر وعيدا وزجرا مِن لفظ ملك الرُّوم السَّابق ، حيث لم يقتصر الخبر في الآية الكريمة على التأكيد بأنَّ عقبى أهل الإيمان أفضل من عقبى ملك الروم ومن معه من بني جلدته ، وأنَّهم إنْ قدموا لقتال أهل الإيمان فسيكون لأهل الإيمان النصر والغلبة وستكون عاقبة الروم وخيمة ، بل صحب التأكيد على ذلك الإشارة بعلمهم بذلك حينئذ ، وهذا يوحي بأنَّ النَّصر سيكون مؤزرا ، والعقبى للكفار ستكون بلا شك وخيمة .

هذا ، ومن جميل الاقتباس القرآني في باب التوقيعات ما وقَّعه سعد بن أبي وقاص وقد كتب إليه نفر من أهل مصر يشكون مروان بن الحكم ، فوقع في كتابهم : " فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون " [٢]

فالناظر هنا يرى أنَّ الاقتباس قد وقع موقعا حسنا حيث تجده أصاب غرض الموقِّع وهو البراءة التامَّة من فعل الوالي (مروان بن الحكم) وتسجيل رفضه له وعدم إقراره ، وفي هذا من التأنيس للشاكين والتحذير لمروان ما لا يخفى على ذي عينين ، إذ إن الخبر في قوله (إني بريء مما تعملون) مؤكدا بإن واسمية الجملة كما ترى .

وقد يفهم منه أيضا براءة الموقِّع (سعد بن أبي وقاص) مما قد يدور في خلد الرَّعية وهو عصيان واليهم والخروج عليه ، ففيه النص على أنَّ هذا الفعل لا يرتضيه سعد بن أبي وقاص بحال .

---

(١) ينظر : تفسير أبي السعود ٥ / ٢٨ ــ ط : دار إحياء التراث العربي ــ بيروت .

(٢) ينظر : خاص الخاص للثعالبي ص ١٢٦ . والآية من سورة الشعراء : آية رقم : ٢١٦

لكن الناظر هنا بتأمُّل يجد أن الموقع قد استطاع بحسه أن يجعل التوقيع يحمل في ثناياه ضربا من التحذير والتوبيخ وكأنه عدل به إلى مقصود آخر غير المقصود القرآني ، فالآية القرآنية واردة في مقام التوجيه لسيد المرسلين بالتبليغ والإنذار ، إذ إنَّ معناها " أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض جناحك لهم ، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره " (١) وفيها من التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى .

فالآية الكريمة لم تحمل بين جنباتها هذا التحذير بالغ الشدة الذي حمله مضمون التوقيع مع اختلاف الحالين ، فسياق الآية البراءة من العاقبة الوخيمة للشرك وعبادة غيره سبحانه ، وكذا سائر المعاصي التي ارتكبها القوم ، في حين ترى أنَّ حال التوقيع هو البراءة من فعل مروان المشكو في حقه ، وكذا البراءة من مغبة الخروج على الوالي وشكايته ، ولاسيَّما إن عرفنا أنَّ الآية الكريمة قد نسخت بالأمر بجهاد هؤلاء الكُفار وقتالهم ، فالبراءة لم تكن عقابا على ما ترى .

وهنا يُمكن للباحث تسجيل سمة مِن سمات الاقتباس في باب التوقيعات وهي نقل المقتبس من مقام إلى مقام آخر يتناغم مع مقتضيات الأحوال .

ومن سمات الاقتباس كذلك هنا في باب التوقيعات عدم النَّص على مُنشئ الاقتباس كأن يقول الموقِّع : قال الله تعالى ، إن كان المُقتبَس من القرآن الكريم مثلا .

ومن شواهد الاقتباس ما وقعه الخليفة المأمون لوزيرة الفضل بن سهل في قصة متظلم بقوله : وكان حقا علينا نصر المؤمنين .

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل المشهور بـ (تفسير النسفي) للإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي ـ تح : سيد زكريا ـ ٣ / ٨٢٦ ـ ط : مكتبة نزار مصطفى الباز .

فالاقتباس ــ كما ترى ــ أصاب موقعه حيث انسجم مع الغرض وحال الموقع له ، فالعبارة على وجازتها حملت من المعاني ما لو ظلَّ المأمون شهرا يكتب لهذا المتظلِّم بما يُؤنسه ويكشف عنه همَّه وكربه ، فقوله : (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) جزء من قوله تعالى : ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (١) والغرض منها تبشير المصطفى عليه الصلاة والسلام وأمته بالنَّصر على الأعداء ، و" وفي لفظ حقاً مبالغة في التحتّم ، وتكريم للمؤمنين ، وإظهار لفضيلة سابقة الإيمان ، حيث جعلهم مستحقين النصر والظفر . والظاهر أن (حقاً) خبر كان ، و (نصر المؤمنين) الاسم ، وأخر لكون ما تعلق به فاصلة للاهتمام بالجزاء ، إذ هو محطّ الفائدة " (٢)

هذا ، وقد تجلَّت في الاقتباس هنا فضيلة الإيجاز والاختصار ، حيثُ إنَّ النَّص المُقتبَس ــ كما يقول الزَّمخشريّ ــ : " اختصر الطريق إلى الغرض بأن أدرج تحت ذكر الانتصار والنصر ذكر الفريقين ، وقد أخلى الكلام أوّلاً عن ذكرهما. وقوله : { وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين } تعظيم للمؤمنين ، ورفع من شأنهم ، وتأهيل لكرامة سنية ، وإظهار لفضل سابقة ومزية ، حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم ، مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم " (٣)

ثمَّ إنَّه لا يفوتنى التنوية بتمكُّن الآية الكريمة بين أختيها السابقة واللاحقة وإن كان وقوعها وقوع ما يعترض به بين كلامين متصلين معنى ، فالآية الكريمة

---

(١) سورة الروم : آية ٤٧

(٢) البحر المحيط لابن عطية الأندلسي ــ تح : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ــ والشيخ علي محمد معوض ٧ / ١٧٣ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١ م .

(٣) الكشاف ٣ / ٤٩٠

سُبقت بقولـــه جـــلَّ شـــأنه : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ وتلاها قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ وفي هذا يقول أبـــو الســـعود : " ولعلَّ توسيط الآيةِ الكريمةِ بطريق الاعتراضِ بين ما سبقَ وما لحقَ من أحـــوالِ الرِّياحِ وأحكامِها لإنذارِ الكَفَرةِ وتحذيرِهم عن الإخلالِ بمواجبِ الشُّـــكرِ المطلـــوبِ بقولِه تعالى لعلَّكم تشكرُون بمقابلةِ النعمِ المعدودةِ المنوطةِ بإرسالِها كيلا يحلَّ بهم مثلُ ما حلَّ بأولئك الأممِ من الانتقامِ " [١]

فلا شكّ أنَّ التوقيع كما ترى قد اكتسب كلّ هذه الإيحـــاءات والـــدلالات : (التأنيس والتبشير والتعظيم والإنذار) مِن بديع النظم الكريم ، وهذا يكشف دراية الموقِّع وعلمه بما ينطوي عليه النظم الكريم من أسرار ودلالات تتناسب وأغراض التوقيعات .

ومن حسن الاقتباس ما كتبه المهدي إلى عامل أرمينية وكان قد شكا إليه سوء طاعة رعاياه : خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين [٢] فـــالتوقيع المقتبس من القرآن الكريم على وجازته كان وافيا تامًّا ، لخَّـــص فيـــه المهـــديّ لعامله ما يجب فعله ، فأصل الاقتباس " خطاب لرسول الله صلى الله عليه وســـلم ويعمّ جميع أمته وهي أمر بجميع مكارم الأخلاق ، وقـــال عبـــد الله بـــن الزبيـــر ومجاهد وعروة والجمهور : أي اقبل من الناس في أخلاقهم وأموالهم ومعاشرتهم بما أتى عفواً دون تكلّف ولا تخرّج والعفو ضد الجهد أي لا تطلب منهم ما يشـــقّ عليهم حتَّى لا ينفروا .. والعرف المعروف والجميل من الأفعال والأقوال .. والأمر

(١) تفسير أبي السعود ٧ / ٦٤
(٢) ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٩٥ والآية في : سورة الأعراف : آية ١٩٩ .

بالإعراض عن الجاهلين حضّ على التخلُّق بالحلم والتنزُّه عن منازعة السُّفهاء وعلى الإغضاء عما يسوء " (١)

ومن مليح الاقتباس ما وقّعه عمر بن عبد العزيز ــ رضي الله عنه ــ إلى عامله على الكوفة وقد كتب إليه أنَّه فعل في أمر كما فعل عمر بن الخطاب : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ حيث تجد التوقيع المُقتبَس على وجازته قد اشتمل على أطيب كلمة تقال في الثناء على خليفة راشد كعمر الفاروق ــ رضي الله عنه ــ فاسم الإشارة وما بعده ﴿ أولئك الذين هدى الله ﴾ استحضر شخص عمر الفاروق ، وجعله ماثلا شاخصا أمام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه حتى كأنه يشير إليه باليد الجارحة ، وهذا استحضار ادِّعائي مِن شأنه التأثير في المخاطَب حيث إنه سيرى بعينيه أنموذجا حيًّا لحال من هداهم الهادي بهديه ، وهذا يستلزم فرط الاقتداء والموافقة لأفعالهم ، مع ما في إيثار اسم الإشارة الدال على البعد من الإشارة إلى علو منزلة المشار إليه .

ثمَّ تأمَّل تقديم الجار والمجرور على عامله في قوله : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ وكيف أفاد التقديم الاختصاص ، وأنَّ الاقتداء لا يكون إلا بأمثال عمر رضي الله عنه ، وفي هذا ما فيه من حسن الثناء على أحد صحابة الرسول الكرام رضي الله عنهم أجمعين .

فالاقتباس هنا حسن لا يضيره أنَّ المشار إليهم في الآية الكريمة الأنبياء الوارد ذكرهم في سورة الأنعام عند قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ

(١) البحر المحيط ٤ / ٤٤٤

وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١)

ولا يضير الاقتباس كذلك أنَّ المأمور بالاقتداء هو نبينا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام ، والهداية المأمورة في الآية الكريمة : " توحيد الله تعالى وتقديسه عن الشريك ، فالمعنى : فبطريقتهم في الإيمان بالله تعالى وتوحيده وأصول الدين " (٢)

هذا ، ويحمل التوقيع : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ في ثناياه التعريض بمدح عامل علي ــ رضي الله عنه ــ حيث إنَّه أحسن الاقتداء بفعال عمر رضي الله عنه .

أيضا من سمات الاقتباس في أدب التوقيعات الإيجاز والاختصار حيث تراه مقصورا على آية قصيرة ، كما في توقيع المهدي إلى عامل أرمينية ، وكان قد شكا إليه سوء طاعة رعاياه : خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (٣)

ومنه أيضا توقيع المهدي وقد رفعت إليه قصة رجل حبس في دم ، فوقَّع فيها بقوله : " ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب " (٤)

أو مقصورا على جزء من آية كأن يكون المقتبس من أولها كما في توقيع عمر بن عبد العزيز ــ رضي الله عنه ــ إلى عامله على الكوفة وقد كتب إليه أنَّه فعل في أمر كما فعل عمر بن الخطاب : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ (٥).

---

(١) سورة الأنعام : الآيات من ٨٣ : ٨٧
(٢) البحر المحيط ٤ / ١٧٩
(٣) العقد الفريد ٤ / ٢٩٥ والآية في سورة الأعراف : ١٩٩
(٤) العقد الفريد ٤ / ٢٩٦ والآية في سورة البقرة : ١٧٩
(٥) العقد الفريد ٤ / ٢٩١ والآية في سورة الأنعام : ٩٠

أو من وسطها كما في توقيع طاهر بن الحسين وقد وقع في رقعة متنصح: " سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين " (١)

ومثله توقيع سليمان بن عبد الملك إلى قتيبة بن مسلم : وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا (٢)

أو من آخرها ، كما في توقيع الرشيد ، وقد كتب إليه متملك الروم : إني متوجه نحوك بكل صليب في مملكتي ، وكل بطل في جندي ، فوقع في كتابه : وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار (٣)

ومثله توقيع يزيد بن معاوية وقد كتب إليه مسلم بن عقبة المري بالذي صنع أهل الحرة فوقع في أسفل كتابه : فلا تأس على القوم الفاسقين (٤)

ومثله توقيع أبو جعفر المنصور إلى قوم تظلموا من عاملهم : لا ينال عهدي الظالمين (٥)

ومثله توقيع السفاح إلى قوم شكوا غرق ضياعهم في ناحية الكوفة : وقيل بعدا للقوم الظالمين (٦)

ومن مليح الاقتباس ما وقّعه (الحسن بن سهل ذي الرياستين) إلى رجل من الشعراء يقول له :

رأيت في النومِ أني مالكٌ فرساً ∴ ولي وصيف وفي كفي دنانيرُ

---

(١) العقد الفريد ٤ / ٣٠٥ والآية في سورة النمل : ٢٧
(٢) العقد الفريد ٤ / ٢٩٠ والآية في سورة آل عمران ١٢٠
(٣) العقد الفريد ٤ / ٢٩٧ والآية في سورة الرعد : ٤٢
(٤) العقد الفريد ٤ / ٢٨٩ والآية في سورة المائدة : ٢٦٠
(٥) العقد الفريد ٤ / ٢٩٤ والآية في سورة البقرة : ١٢٤
(٦) العقد الفريد ٤ / ٢٩٤ والآية في سورة هود : ٤٤

فقـــال قـــومٌ لهـــم علـــمٌ ومعـــرفةٌ ∴ رأيـــت خـــيراً وللأحـــلامِ تفســـيرُ

رؤيـاك فسّـر غـدا عنـد الأمير تجـد ∴ تعـبير ذاك وفي النـوم التّباشـير[١]

فوقع في أسفل كتابه : أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْـأَحْلامِ بِعـالِمِينَ وأطلق له ما التمسه [٢]

فالحسن بن سهل قد اقتبس ما هو أوفق بالمقام لفظا ومعنى كما رأيـت ، إذ إنَّ المقصود بأضغاث الأحلام " تخاليطها وأباطيلها ، وما يكون منها مِن حديث نفس أو وسوسة شيطان " [٣] فالحسن أراد أن يرمي كلام صاحب الكتاب بالبطلان ، وأنَّ الغرض منه طلب النَّوال فحسب ، ولذلك تجده قد أطلق له ما أراد .

وهو يتناسب كذلك مع لفظ الكتاب المُرسل ، ففي الكتاب تجد لفظ (رأيت ، النوم ، وللأحلام تعبير ، رؤياك ، تعبير ذاك ، في النوم التباشير)

وتحسن الإشارة إلى أن صاحب الكتاب قد أحسن الطلب ، حيث جاء الطلب في صورة منام رآه في نومه وهو طريق مسلوك تجده للشعراء كثيرا في كتـب القوم ، ومن ذلك ما أورده صاحب العقد الفريد إذ دخل ابن عبدل على عبد الملك بن بشر بن مروان ، لما ولي الكوفة فقعد بين السماطين ، ثم قال : أيها الأمير ، إني رأيت رؤيا فأذن لي في قصصها فقال : قل . فقال :

أغفيـت قبـل الصـبح يـوم مسـهد ∴ في سـاعة مـا كنـت قبـل أنامهـا

فرأيـت أنـك رعـتني بوليـدة ∴ مفلوجـة حسـن علـي قيامهـا

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي ٢ / ٤٥٥ ــ ط : دار ومكتبـة الهـلال ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٩٨٧ م .

(٢) ينظر : العقد الفريد ٤ / ٣٠٤ والآية في سورة يوسف : ٤٤

(٣) الكشاف ٢ / ٤٤٧

وببـــدرة حملـــت إلـــي وبغلـــة ∴ شـهباء ناجيـة يصـر لجامهـا [١]

قال له عبد الملك بن بشر بن مروان : كل شيء رأيت فهـو عنـدي إلا البغلة ، فإنها دهماء فارهة [٢] .

ومِن سمات الاقتباس في أدب التوقيعات : قلّة الاقتباس مِن البيان النَّبوي الشَّريف ، أو ندرته إذا قورن بالاقتباس مِن القرآن الكريم .

ومن مَليح التضمين في أدب التوقيعات ، وهو قليل إذا قورن بالاقتبـاس من القرآن الكريم : ما جاء عن قُتيبة بن مسلم الباهلي [٣] أنَّه كتب إلي سـليمان بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي [٤] يتهدَّده بالخلع ، فوقع سُـليمان فـي

(١) أغفى : نام . لسان العرب مادة (غ ف ى) ١٥ / ١٣١ . السـهاد : نقـيض الرقـاد والأرق . ينظر : اللسان ٣ / ٢٢٤ مادة (س هـ د) . الريع : النمـاء والزيـادة ويـع الشيء زاد وزكا . ينظر : اللسان ٨ / ١٣٨ مادة (ز ك ى) . الفالج الجمل الضـخم ذو السنامين . ينظر : لسان العرب ٢ / ٣٤٦ مادة (ف ل ج)

(٢) ينظر : العقد الفريد ١ / ٢٣٠ ، الجزء الأول من العقد الفريد من تحقيق د / مفيد محمد قميحة .

(٣) هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن ربيعة الباهلي أبـو حفـص فـتح خـوارزم وبخارى وسمرقند ، ولي خراسان عشر سنين . ولما بلغه موت الوليد نزع الطاعة فاختلف عليه جيشه وقام عليه رئيس تميم وكيع بن حسان وألب عليه ثم شد عليه في عشرة مـن فرسان تميم فقتلوه في ذي الحجة سنة ست وتسعين وعاش ثمانيا وأربعين سنة . ينظـر : سير أعلام النبلاء للذهبي ــ تح : شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي ٤ / ٤١٠ ــ ط : مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط : تاسعة ــ ١٤١٣ هـ .

(٤) هو : سليمان بن عبد الملك بن مروان ، أبو أيوب ، الخليفة الأموي (ت ٩٩ هـ) ، ولد في دمشق ، وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد (سنة ٩٦ هـ) ، وفي عهده فتحت جرجان وطبرستان ، وكانتا في أيدي الترك . ينظر : الأعلام للزركلي ٣ / ١٣٠

كتابه وقد ضمَّنه ما جاء على لسان جرير وهو يرد على توعد الفرزدق بالقتل لمربع حين وجده يحفظ شعر جرير :

زَعَمَ الفَرزدقُ أنْ سَيَقْتلُ مِرْبَعا ∴ أبْشِرْ بطُولِ سَلامَةٍ يَا مِرْبَعُ[1]

فما أجمل هذا التوقيع الوافي بغرض قائله حيث حمل التوقيع في تضاعيفه معني الإهانة والتحقير والتوبيخ والتكذيب لقتيبة الباهلي ، ورميه بالعجز والضعف وأنَّه لا يمكنه إيقاع ما هدَّد به ، وفيه شوب تعظيم النفس والدُّعاء لها بالسلامة !

والمتأمِّل هنا يجد أنَّ جملة (أبْشِرْ بطُولِ سَلامَةٍ يَا مِرْبَعُ) قد فصلت عن جملة (زَعَمَ الفَرزدقُ أنْ سَيَقْتلُ مِرْبَعِا) لكمال الانفصال بين الجملتين ، فالأولى خبرية لفظا ومعنى ، والثانية إنشائية لفظا ومعنى ، وهذا يشي بالتباين التام بين الحالين حال التهديد الصادر من قتيبة الباهلي وما ينتج عنه من الغضب والاضطراب والارتباك ، وتلك الحال التي عليها سليمان بن عبد الملك من الاطمئنان والأريحية والسكون والثقة بالنفس .

وربما كان الفصل بين الجملتين سببه شبه كمال الاتصال ، فكأنَّ سائلا سأل : وماذا كان جواب مربع ؟ فكان الجواب ما تضمنه عجز البيت (أبْشِرْ بطُولِ سَلامَةٍ يَا مِرْبَعُ) وهو تكذيب الزاعم وتبكيته .

هذا ، والبيت صورة من صور رد الأعجاز على الصدور ، وله هنا موقع جليل مِن البلاغة ، حيث إنَّ تكرار ذكر (مربع) في البيت له دلالة عناها الشَّاعر ، وهي تتناسب مع السِّياق أيَّما تناسب ، فذكر (مربع) ثانية صورة من صور تكذيب الفرزدق المهدِّد بالقتل ، وكأنَّ الذكر ثانية يترجم بقاءه حيًّا ، مع ما في نداء النفس هنا ــ وهي قريبة ــ بما هو للبعيد مِن الإشارة إلى علوّ الشَّأن وعِظم

(١) ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٩٠

القدر تنزيلا للبعد الحِسِّي منزلة البُعد المعنوي ، فلأنَّ حياتـــه ممتـــدَّة وباقيـــة لا انقطاع لها آثر جرير (يا) لما فيها من امتداد صوتي .

ومِن سمات التَّضمين في أدب التوقيعات : اختيار الأبيات السَّـــائرة التـــي تشبه الأمثال ، واقتصار التضمين على شطر بيت وللموقع الشطر الآخر ، من ذلك ما وقَّعه طاهر بن الحسين [١] في كتاب العباس بن موسى الهادي واستبطأه فـــي خراج ناحيته :

وليس أخُو الحاجات مَنْ بات نائماً ∴ ولكن أخوها مَنْ يَبيت على رَحْلِ[٢]

وهنا آثر المُوقِّع طريق التَّضمين لوفاء التضمين بالغرض ، حيـــث حمـــل قوله الذي ألبسه ثوب الكناية : (وليس أخُو الحاجات مَنْ بات نائمـــاً) التـــوبيخ ورميه بالتكاسل في الوفاء لما يصلح من اُستعمل عليهم ، وحمَل قوله : (ولكـــن أخوها مَنْ يَبيت على رَحْلِ) التحفيز وشحذ الهمة ، ففي قوله (مَنْ يَبيت علـــى رَحْلِ) كناية عن الترحال وطلب المعاش وبذل الجهد والقيام بحاجات النفس .

هذا ، ولفظ البيت المنسوب لابن الخياط هو قوله :

وَلَيْسَ أَخُو الْحاجاتِ مَنْ باتَ راضِياً ∴ بِعَجْـزٍ عَلَـى الأَقْـدارِ فِيـهِ يُحـالُ

---

(١) هو : طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي (ت ٢٠٧ هـ) من كبار الوزراء والقواد أدبا وحكمة وشجاعة ولقب بذي اليمينين ؛ لأنه ضرب رجلا بشماله فقده نصفين ، أو لأنه ولي العراق وخراسان ، لقبه بذلك المأمون . ينظر : الأعلام للزركلي ٣ / ٢٢١

(٢) ينظر : العقد الفريد ٤ / ٣٠٥

ـــ هذا ، والبيت من الطويل ، وهو لابن الخياط (ت ٥١٧ هـ) ، ويروى :

وَلَيْسَ أَخُو الْحاجاتِ مَنْ باتَ راضِياً ∴ بِعَجْـزٍ عَلَـى الأَقْـدارِ فِيـهِ يُحـالُ

ـــ وهو من قصيدة استهلها ابن الخياط بقوله :

أصُـــونُ لِســـانِي والجنـــانُ يُـــذالُ ∴ وأقْصِـــرُ بثَّـــي والشـــجُونُ طِـــوالُ

ومن هنا فإن عجز البيت في التوقيع وهو قوله : (ولكن أخوها مَنْ يَبيت على رَحْلِ) قد يكون للموقع نفسه (طاهر بن الحسين) ويكون التضمين مقصورا على الشطر الأول ، حيث إن قوله : (ولكن أخوها مَنْ يَبيت على رَحْلِ) أوفى بالغرض وأوقع من قول ابن الخياط : (بِعَجْزٍ عَلَى الأَقْدارِ فِيهِ يُحالُ) .

هذا ، والتضمين في أدب التوقيعات يعكس ثقافة الموقِّعين الواسعة بالشعر العربي ، ويبرز قراءاتهم الثرة العميقة ، ويبين عن موفور عنايتهم بشعر العرب ومدى حفظهم له ، وأنَّه عندهم من الأهمية بمكان .

ويحسُن الختام هنا ببيان أنَّ القرآن الكريم والشعر العربي خاصة كانا رافدين مهمَّين لأدب التوقيعات لما للغة القرآن الكريم والشعر مِن بديع التأثير في المتلقي وقدرتهما الفائقة على الإقناع والإمتاع في آن واحد .

المطلب الرابع :

السجع المطبوع

اتَّكأ أصحاب أدب التوقيعات على فنون بلاغيَّة كثيرة ، كان من بينها السَّجع ، إذ عدَّ المُوقِّعون السجع مُكوّنا ورافدا لهذا الأدب الرَّفيع لما للسَّجع من مظاهر جَمالية عديدة ، منها : موسيقاه العذبة التي تلعب بآذان مستمعيها ما يجعل النفس تهش لعبارته وتطرب ، فتأثيره في النفوس لا ينكر بحال ، وكيف لا؟ والسجع كما قال العلوي : " من أرفع مراتب الكلام ، وأعلاها ، وأجلّ علوم البلاغة ، وأسناها ، ولهذا اختصّ به من بين سائر الأساليب البلاغية التنزيل ، وأحاط بطويله وقصيره ، وكان الحسن فيه على أحسن هيئة وتنزيل [١]

وتبدو فضيلة السجع في جواب عبد الصمد الرقاشي ، حيث تذكر كتب الأدب أنه قيل لعبد الصّمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي : لِمَ تؤثرُ السَّجع على المنثور ، وتلزمُ نفسَك القَوافِيَ وإقامةَ الوزن ؟ قال : إنَّ كلامي لو كنتُ لا آمُلُ فيه إلاّ سماع الشاهد لقلّ خلافي عليك ، ولكنَّي أريد الغائبَ والحاضر ، والراهن والغابر ؛ فالحفظُ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشَط ؛ وهو أحقُّ بالتقييد وبقلّة التَّفلُّت ، وما تكلَّمَتْ به العربُ مِن جيِّد المنثور ، أكثرُ ممّا تكلمت به من جيِّد الموزون ، فلم يُحفظْ من المنثور عُشرُه ، ولا ضاع من الموزون عُشره [٢]

يقول الدكتور شوقي ضيف وهو يؤرخ لخاصية السَّجع البلاغيَّة في أدب التوقيعات : والتوقيع ــ كما هو واضح ــ سجع خالص ، وسنرى عمَّا قليل أنَّ

---

(١) ينظر : الطراز لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي ٣ / ١٦ ــ ط : المكتبة العصرية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢٣ هـ .

(٢) ينظر : البيان والتبيين للجاحظ ــ تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ــ ١ / ٢٨٧ ــ ط : مكتبة الخانجي ــ القاهرة ــ ط : سابعة ــ ١٤١٩ ه ــ ١٩٩٨ م .

سريان السَّجع في الرَّسائل الشخصية طوال القرن الثالث الهجري كان أقوي منه في الرسائل الديوانية ، حتى إذا كان عصر المقتدر (٢٩٥ – ٣٢٠ هـ) أخذ السَّجع يعمّ في جميع ما يصدر من الرَّسائل الديوانية ، فليس هناك وزير ولا كاتب في الدواوين إلا وهو يتأنَّق في كتابته ويبالغ في تأنُّقه حتى يجعل كتابته سجعًا خالصاً ، وبذلك أخذ كل ما يصدر عن الخليفة منذ سنة ٣٠٠ للهجرة يوشي بالسجع ، وبالمثل ما يصدر عن وزرائه ، وفي مقدمتهم ابن الفرات .

وكان علي بن عيسى الوزير لا يقل عناية عنه بالسجع ، وقد ذكر له الهلال مجموعة كبيرة من رسائله كلها مسجوعة ومثله وزير المقتدر الثالث الخاقاني فقد كان شغوفًا بالسجع شغفاً شديداً وتروي له في ذلك نوادر كثيرة [١]

حتى قال شوقي ضيف : " وكأنَّ السَّجع أصبح لغة جميع الرَّسائل منذ أوائل القرن الرابع للهجرة ، بل مع أواخر القرن الثالث ، فليس هناك كاتب إلا ويسجع ، وإنْ فاته السَّجع في مكان من رسالته عاد إليه في الأمكنة الأخرى " [٢]

ويختم شوقي ضيف كلامه في هذا الشَّأن قائلًا : " أن السَّجع أصبح منذ خلافة المقتدر اللغة العامة للدواوين ، فالرسائل تمتلئ بزخارفه ولآلئه ، إذ غدا المثلَ الأعلى للجمال الفنِّي في الكتابة الديوانية ، فلا بد فيها من قوافيه وفواصله، ولا بد من تساوق أنغامه وألحانه في الكلام " [٣]

---

(١) ينظر : تاريخ الأدب العربي ــ العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ٤ / ٥٥٩ ــ ط : دار المعارف ــ مصر ــ ط : ثانية ــ من دون تاريخ .

(٢) تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف ٤ / ٥٦١

(٣) المرجع السابق ٤ / ٥٦٢

ولكي يحسن السجع يشترط له أن يقع " سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه" (١)

وتجيء عبارة عبد القاهر أيضا ناطقة بهذا الأمر ، حيث ذكر ــ رحمه الله ــ أنَّ السَّجع المحمود ما كان " المتكلِّم لم يَقُدِ المعنى نحوَ التجنيس والسَّجع ، بل قادَه المعنى إليهما ، وعَبر به الفرق عليهما ، حتى إنه لو رَامَ تَركَهُما إلى خلافهما مما لا تجنيسَ فيه ولا سجعَ ، لدخَل من عُقُوق المعنى وإدخال الوَحْشَة عليه ، في شبيهٍ بما يُنسَب إليه المتكلف للتَّجنيس المستكْرَهِ ، والسجع النَّافر ، ولن تجد أيمنَ طائراً ، وأحسنَ أوّلاً وآخراً ، وأهدى إلى الإحسان ، وأجلبَ للاستحسان ، من أن تُرسل المعاني على سجيّتها ، وتَدَعها تطلب لأنفسها الألفاظَ، فإنها إذا تُركت وما تريد لم تكتسِ إلا ما يليق بها ، ولم تَلْبَسْ من المعارض إلا ما يَزِينها ، فأمّا أن تَضَع في نفسك أنه لا بُدَّ من أن تجنس أو تَسْجَعْ بلفظين مخصوصين ، فهو الذي أنْتَ منه بِعَرَض الاستكراه ، وعلى خَطَرٍ من الخطأ والوقوع في الذَّمّ " (٢)

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ١٧٧ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٠٢ هـ ــ ١٩٨٢ م .

(٢) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ــ تعليق : الشيخ : محمود محمد شاكر ص ١٤ ــ ط : دار المدني بجدة ــ د ت .

وأول ما يمكن تسجيله هنا من سمات تتبدى للناظر من أول نظرة : وقوع السجع بلا كلفة [١] في أدب التوقيعات وهو أمر ظاهر لا يحتاج إلى دليل ؛ ذلك لأنَّ ألفاظ التوقيعات ــ كما أسلفنا ــ موجزة جدًّا ، وفيها تكون تجربة الموقِّعين صادقة ما يجعل المعاني حرَّة تختار لأنفسها الألفاظ التي تُلائمها ، وهذا يأخذنا إلى القول بأنَّ الألفاظ والمعاني في أدب التوقيعات مُتجانسة مُتآلفة ، فتنتخب المعاني ما تحبّ من الألفاظ ، وكأنَّ علاقة اللفظ بمعناه في هذا اللون النثري علاقة الجسد بالروح .

فأدب التوقيعات فن يعكِس الفطرة العربية الخالِصة في أبهى صُورها ، وأصدق مظاهرها ، حيث يترجم مدى ما وصل إليه أصحاب التوقيعات من قدرة فائقة على البيان ، حيث تخرج التوقيعات الأدبية في عبارة وجزة ، فيها لُطف ودقة ، تتناسب مع حال التوقيع ، مع إيفائها بالغرض ، وفوق كلّ ذلك اشتمالها على بعض السمات البلاغيَّة التي عرفت لهذا الأدب من كونها مسجوعة حينا ، أو كونها مقتبسة أو حسنة التقسيم حينا آخر ، إلى غير ذلك من السمات البلاغيَّة التي سوف يسجلها البحث .

---

(١) لكن حفظت لنا كتب الأدب العربي توقيعا وقَّعه الصاحب بن عَباد لقاضي قم ، وفيه سجع متكلَّف ، وهو قوله :

أيها القاضي بقم ∴ قد عزلناك فقم

ــ فكان القاضي يقول إذا سُئلَ عن سبب عزله : أنا معزول السَّجع من غير جُرم ولا سَبب . ينظر : معجم البلدان لياقوت الحموي ٤ / ٣٩٨ ــ ط : دار الفكر ــ بيروت .

ــ فعفوية السَّجع في أدب التوقيعات خاصية بلاغيَّة أقرب إلى الاطِّراد ، وإنْ قال قائل باطِّرادها لم يُبْعد ، ويشهد لذلك ما عرضت له هذه الدِّراسة مِن نماذج كشفت عن ذلك .

فمن هذه التوقيعات التي تجلَّت فيها خاصية السَّجع العفوي : ما وقَّعه جعفر بن يحيى في قصة عامل كثرت منه الشَّكوى : قد كثُر شاكوك ، وقلَّ شاكروك ، فإمَّا اعتدلت ، وإمَّا اعتزلت (١)

أول ما يجب التنبُّه له هنا وفاء التوقيع على وجازته بالمقام وغرض القائل حيث حمَل التوقيع في تضاعيفه الإخبار بتذمُّر الرَّعيَّة الذي من شأنه كثرة الشكاية ، وقلة الشُّكر ، وأفاد كذلك التهديد بمعاقبة هذا العامل بالعزل إنْ لم تحمده رعيته ، ورجع عن سُوء معاملته لهم .

ثمَّ تأمَّل جرس السَّجع على الأُذن ، وكيف أنَّه وقع عفو الخاطر مِن غير تكلُّف ، ما يجعل النَّفس تستسيغه ، وتهش له ، وتشعر بحلاوة ألفاظه ، لأنَّها ــ كما ترى ــ ليست غثة ، ولا باردة " وأعني بقولي (غثة باردة) أن صاحبها يصرف نظره إلى السَّجع نفسه مِن غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة ، وما يشترط لها مِن الحُسن ، ولا إلى تركيبها ، وما يشترط له من الحسن ، وهو الذي يأتي به مِن الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثواباً مِن الكرسف ، أو ينظم عقداً مِن الخزف الملون ، وهذا مقام تزلّ عنه الأقدام ، ولا يستطيعه إلا الواحد مِن أرباب هذا الفن بعد الواحد ، ومن أجل ذلك كان أربابه قليلاً " (٢)

ويلمح هنا تواطؤ الفاصلتين على أكثر من حرف وهو ما يسمى لزوم ما لا يلزم ، ففي التوقيع السابق : (قد كثُر شاكوك ، وقلَّ شاكروك ، فإمَّا اعتدلت ، وإمَّا اعتزلت) تجد كل فاصلتين قد تواطأتا على حرفين ، ففي قوله (قد كثُر شاكوك ، وقلَّ شاكروك) تواطأت الفاصلتان على حرفيّ الواو والكاف ، وفي قوله: (فإمَّا اعتدلت ، وإمَّا اعتزلت) تواطأت الفاصلتان على حرفيّ اللام والتاء .

---

(١) ينظر : العقد الفريد ٤ / ٣٠٢

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير ــ تح : محمد محي الدين عبد الحميد ١ / ١٩٨ ــ ط : المكتبة العصرية للطباعة والنشر ــ بيروت ــ ١٩٩٥ م .

ومن التوقيعات الأدبية التي اكتست ثوب السَّجع القشيب : ما وقَّعه المنصور في كتاب عامله على حِمص و قد كثُر فيه الخطأ : استبدِل بكاتبك ، وإلا أستُبْدِل بك [١] .

تأمَّل تجد توقيع المنصور وافيا بغرضه وهو الأمر الصريح باستبدال الكاتب بآخر يحسن الكتابة ، ثمَّ تهديد هذا العامل باستبداله بآخر إن توانَ في استبدال هذا الكاتب الذي لا يحسن مهنة الكتابة فاشتملت كتبه المرسلة إلى الخليفة المنصور على أخطاء ، وقد كساها المنصور ثوب السَّجع القصير ، وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين مؤلَّفة من ألفاظ قليلة ، وكلما قلت الألفاظ كان أحسن ، لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع ، وهذا الضرب أوعر السجع مذهبًا ، وأبعده متناولًا ، ولا يكاد استعماله يقع إلّا نادرًا [٢]

فقصر السَّجعات ــ كما رأيت ــ خاصية بلاغية تجدها في أدب التوقيعات، وذلك نظرا لاختصاص التوقيعات كما أسلفنا بالإيجاز والتركيز .

ومن سمات السَّجع البلاغيَّة في أدب التوقيعات : تعادل السَّجعات ، وورودها متقاربة في الطُّول ، وتواطؤ الفواصل على أكثر مِن حرف ، ففي التوقيع السَّابق : (استبدِل بكاتبك ، وإلا أستُبْدِل بك) تجد الفاصلتين قد تواطأتا على حرفي الباء والكاف .

ومن مظاهر السَّجع في أدب التوقيعات : وقوع السَّجع المُتوسط بين الطول والقصر ، ومن ذلك ما وقَّعه المأمون في يوم عاشوراء لبعض أصحابه وقد وافته الأموال : يؤمر له بخمسمائة ألف لطول همته ، ولثمامة بن أشرس بثلاثمائة ألف لتركه ما لا يعنيه ، ولأبي محمد اليزيدي يؤمر له بخمسمائة ألف

---

(١) ينظر : العقد الفريد لابن عبد ربه ٤ / ٢٩٥ .
(٢) المثل السائر لابن الأثير ١ / ٢٣٥

لكبره، وللمعلي بخمسمائة ألف لصحيح سنته ، ولإسحاق بن إبراهيم بخمسمائة ألف لصدق لهجته، وللعباس بخمسمائة ألف لفصاحة منطقه، ولأحمد بن أبي خالد بألف ألف لمخالفة شهوته، ولإبراهيم بن بويه كذلك لسرعة دمعته ، وللمريسي بثلاثمائة ألف لإسباغ وضوئه ، ولعبد الله بن بشر بمثلها لحسن وجهه [١]

ويبدو هنا أنَّ خلفاء بني العباس كانوا يثيبون أهل الطاعات ، ولا يحرمونهم من فضل عطاياهم ، وهذه محمدة لا تنكر ، من شأنها تحفيز أهل الطاعات حتى يجتهدوا فيكونوا قدوة لغيرهم فيصلح بصلاحهم العامة .

والناظر هنا يجد أنَّ الفواصل جميعها قد تواطأت على حرف الهاء (همَّته، يعنيه ، لكبره ، سنَّته ، لهجته ، منطقه ، شهوته ، دمعته ، وضوئه ، وجهه) ولأنَّ الهاء مشتقة من الآه وفيه دلالة على التعب تجد المأمون قد آثر استخدام هذا الحرف للإشارة إلى مدى عناء هؤلاء الرجال وفرط اجتهادهم في القيام بهذه الطاعات والمحامد ، وأنَّ هذا يعني أنَّ العطاء الحاصل لهم ليس من باب المنّ والتفضُّل ، وإنَّما هو عطاء عن استحقاق ناتج عن عمل وجهد .

ثمَّ إنَّ صوت الهاء إذا لفظ به مخففاً مرققاً مطموس الاهتزازات ، أوحى بأرق العواطف الإنسانية وأملكها للنفس ، فيكون مخرجه أيضاً في أول الحلق ، أقرب ما يكون من جوف الصدر [٢] فأيُّ عاطفة أرقّ مِن عاطفة ذي عطاء يُثيب أهل الطَّاعات !!

وفقرات السجع كعادته في أدب التوقيعات متقاربة فهي تكاد تكون متشابهة في البناء ما جعل لها صدى موسيقيا عذبا تشعر بحلاوته الأذن .

---

(١) ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٩٩

(٢) ينظر : خصائص الحروف العربية ومعانيها ــ حسن عباس ص ١٩١ ــ ط : منشورات اتحاد الكتاب العرب ــ ١٩٩٨ م .

ومن التوقيعات الأدبية التي اكتست ثوب السَّجع القشيب ، وتجلَّت فيها سمات السَّجع البلاغية في هذا اللون الأدبي : تواطؤ الفواصل على أكثر مِن حرف، وكونه قصيرا من غير تكلف ، مع تقارب ألفاظه في الطول ، وكون هذه الألفاظ حلوة ليست غثة ولا باردة تتناسب مع غرض الموقِّع : ما وقَّعه عبد الله أبو جعفر وقد رفع إليه صاحب خراسان رسالة ظهر للخليفة منها أنَّ عامله أساء التصرُّف ، فوقَّع عليه بقوله : " شكوت فأشكيناك ، وعتبت فأعتبناك ، ثمَّ خرجت على العامَّة ، فتأهَّب لفراق السَّلامة " (١)

وفي التوقيع شوب المشاكلة اللطيفة : (شكوت فأشكيناك ، وعتبت فأعتبناك) التي أضفت مع المماثلة في الوزن إيقاعا موسيقيا بديعا يثير النفس ويطرب الأذن .

هذا ، ومن التوقيعات الأدبية التي تجلت فيها مظاهر السَّجع البلاغيَّة (٢)

---

(١) ينظر : العقد الفريد ٢٩٤

(٢) شواهد التوقيعات التي تبرز جلاء مظاهر السجع البلاغيَّة فيها أكثر من أن تحصى ، منها :
ما وقعه الحجاج بن يوسف في كتاب قتيبة إليه أنه على عبور النهر ومحاربة التـرك : لا تخاطر بالمسلمين حتى تعرف موضع قدمك، ومرمى سهامك. ينظر : العقد الفريد ٤ / ٣٠٠
ـ ومنها : ما وقَّعه المنصور وقد كتب إليه عامله بمصر يشكو نقصان نهر النيل ، فوقَّع على الكتاب بقولـه: "طهِّر عسكرك من الفساد يعطك النيل القياد" ينظر: العقد الفريد ٤ / ٢٩٥
ـ ومنها : ما كتبه جعفر بن يحي في أمر قدم له عن محبوس : " العدل يوبقه ، والتوبة تطلقه " ينظر : العقد الفريد ٤ / ٣٠٢
ـ ومنها ما وقعه أبو جعفر المنصور في رسالة صاحب الهند ، وقد أخبره أنَّ جُنْدًا شغبوا عليه ، وكَسروا أقْفالَ بيتِ المال ،فَوقَّع المنصور : لو عدلْت لَمْ يشْغبُوا ، ولو وفيت لم ينتبهوا . ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٩٥ ـ
ـ ومنها : ما وقعه المأمون في رقعة متظلم من عامله على الأهواز ، وكان بالمتظلم عارفا : قد ولّيناك موضعه ، فتنكب سيرته .
ـ ومنها : ما وقعه المهدي إلى شاعر : أسرفت في مديحك فقصّرنا في حبائك ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٩٥ ـ

ما وقَّعه عبد الله بن محمد بن يزداد [١] إلى عامل اعتذر بكفايته وزاد : " يا هذا ! أسرفت وما أنصفت ، وأوجفت حتى أعجفت ، وأذللت حتى أمللت ، فاستصغر ما فعلت تبلغ ما أملت " [٢] وأجمل هذه السمات في :

أولا : عفوية السَّجع وكون الألفاظ حلوة ليست غثة ولا باردة .

ثانيا : تعادل السَّجعات ، وورودها متقاربة في طولها ، حيث التقت جميعها عند خاصية قصر السجعات والتي أشرنا إليها آنفا ، وهذا يتلاقى مع خصيصة الإيجاز التي تتسم بها التوقيعات بشكل عام ، تأمَّل :

أسرفت وما أنصفت

أوجفت حتى أعجفت

أذللت حتى أمللت

فاستصغر ما فعلت

تبلغ ما أملت

(١) هو: عبد الله بن محمد بن يزداد بن سويد الوزير أبو صالح المروزيّ الكاتب كان أبوه من وزراء المأمون، مات سنة إحدى وستيّن مختفياً . ينظر : تاريخ الإسلام للذهبي ٢٠ / ١٢١

(٢) خاص الخاص لأبي منصور الثعالبي ص ١٣٦

المطلب الخامس :

(حسن التقسيم)

من سمات أدب التوقيعات البلاغيــة ورود التوقيــع مقسَّــما [١] ، وهــذا التقسيم يكسوه أبَّهة ويزينه ويجمله ، فالتقسيم لون من البديع يكتسي بــه الأدب بنوعيه الشعر والنثر فيكون في نهاية الجمال وغاية الإحسان .

انظر إليه في قول العباس بن الأحنف ، وقول المتنبي ، تجد لــه مــذاقا حسنا لما له من قدرة على استغراق أوصاف الشيء ، ولاسيَّما إذا وهبك الله حسًّا مستقيما تستطعم به طعوم الكلام المختلفة ، حيث تجده وقد عانق معــه التقابــل فأضفيا معا على الكلام ضروبا من الحسن والإحسان .

يقول الأحنف بن قيس [٢] :

وِصــالُكُمُ صَــرمٌ وَحُــبُّكُمُ قِلــىً ∴ وَعَطفُكُــمُ صَــدٌّ وَسِــلمُكُمُ حَــربُ

وَأَنــتُم بِحَمــدِ اللَــهُ فــيكُم فَظاظَــةٌ ∴ فَكُــلُّ ذَلــولٍ في جَــوانِبِكُم صَــعبُ

وكيف لا وقد سمع بعض الشيوخ مِن نقدة الشِّعر فقال : هذا واللهِ أحسن مِن تقسيمات إقليدس[٣] يقول صاحب يتيمة الدَّهر مُعلِّقا على قــول العبــاس بــن

---

(١) التقسيم هو : استقصاء الشاعر جميع أقسام ما ابتدأ به . ينظر : العمــدة فــي محاســن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق ــ تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ــ ٢ / ٢٠ ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ ط : خامسة ــ ١٤٠١ ه ــ ١٩٨١ م .

(٢) من قصيدة له يتألم فيها من عدم الوصال وقد استهلها بقوله :

أَلا لَيتَ ذاتَ الخالِ تَلقى مِنَ الهَوى ∴ عَشيرَ الَّذي أَلقى فَيَلتَئِمَ الشَعبُ

(٢) ينظر : يتيمة الدهر ١ / ٢٤١

(٣) ينظر : السابق ١ / ٢٤١

الأحنف : وقول أبي الطَّيب المُتنبي ــ يقصد البيت الآتي ذكره ــ في هــذا الفــنّ أولى بهذا الوصف (١)

يقول المتنبي :

ضاقَ الزَمانُ وَوَجهُ الأَرضِ عَن مَلِكٍ ∴ مِلءِ الزَمانِ وَمِلءِ السَهلِ وَالجَبَلِ

فَنَحنُ في جَذَلٍ وَالرومُ في وَجَلٍ ∴ وَالبَرُّ في شُغُلٍ وَالبَحرُ في خَجَلِ

وهنا ترى العباس بن الأحنف قد استطاع أن يستغرق أحــوال المحبــوب كلّها ، ويجعل لكلّ حال منها ما يناسبها مِن الصدود والإعراض ، حتى كان محمَّد بن موسى ينشد هذه الأبيات ويقول : ما أحسن ما قسم حتَّى جعل بإزاء كلّ شيء ضدّه ، والله إنَّ هذا لأحسن مِن تقسيمات إقليدس (٢)

ومِن التوقيعات الأدبيَّة التي تجلَّت فيها خاصية حُسن التَّقسيم مــا وقَّعــه هشام بن عبد الملك في قصة متظلّم : أتاك الغوث إنْ كنت صادقاً ، وحلَّ بك النّكال إنْ كنت كاذباً ، فتقدَّم أو تأخَّر (٣)

استطاع هشام بن عبد الملك مِن خلال توقيعه أن يُجمل حال المتظلِّم فــي أمرين : الصِّدق والكذب وأن يستغرق أوصافه فيهما ، وقد ترتَّب على كلّ منهمــا حكم يناسبه وهو الغوث للصدق والنَّكال للكذب .

هذا ، وحُسن التقسيم جمع إلى جواره التقابُل بين الغوث والصِّدق وبــين النَّكال والكذب مع ما في التوقيع من تناسب إلى حد كبير في بنيتــه التركيبيــة ،

---

(١) ينظر : السابق نفسه ١ / ٢٤١

(٢) ينظر : الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ــ تح : د : إحســان عبــاس ــ و د: إبراهيم السعافين ــ و بكر عباس ١٦ / ٢٣٦ ــ ط : دار صادر ــ بيــروت ــ ط : أولى ــ ٢٠٠٢ م .

(٣) ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٩٢

فالجملة الأولى : (أتاك الغوث إنْ كنت صادقاً) لا تختلف كثيرا في بنيتها عن الثانية : (وحلَّ بك النّكال إنْ كنت كاذباً) وبين الجملتين توسط بين الكمالين ، حيث اتفقتا في الخبرية لفظا ومعنى ، وكانت بينهما مُناسبة كما ترى .

ثمَّ ما أجمل إيثار لفظ (أتاك) في جانب الغوث فلفظ (أتى) هنا يشتم فيه رائحة الخير والعطاء ، وأن الآتي وهو الغيث هنا محبوب ، ففي اللسان : " الإِيتاءُ الإِعْطاء آتى يُؤَاتي إِيتاءً وآتاهُ إِيتاءً أَي أَعطاه ويقال لفلان أَتْوٌ أَي عَطاء وآتاه الشيءَ أَي أَعطاه إِيَّاه وفي التنزيل العزيز وأُوتِيَتْ من كلِّ شيء " [١]

، ولفظ (حلَّ) مع النّكال ، إذ إنَّ لفظ (حل) هنا يشي بوجوب النكال ، وكأنه لا مكان للعفو وهذا من فرط الوعيد . ففي اللسان : " وحَلَّ عليه أَمرُ الله يَحِلُّ حُلولاً وجَبَ وفي التنزيل أَن يَحِلَّ عليكم غَضَبٌ من ربكم ومن قرأَ أَن يَحُلَّ فمعناه أَن يَنْزِل وأَحَلَّه اللهُ عليه أَوجبه " [٢] وفيه تشبيه [٣] حلول النكال بالمتظلم الكاذب بحلول الجيوش أرض القتال .

وهذا يترجم سعة اطّلاع المُوقِّع وذكائه ، ومدى دقَّته في انتقاء مُفردات توقيعه ، مع ما فيه مِن حُسن الوعيد وفرط التهديد ما لا يخفى .

هذا ، ومن سمات التقسيم في أدب التوقيعات اقتران حسن التقسيم بغيره من ألوان البلاغة ولاسيَّما الجناس ، حيث ترى التوقيع مُقسَّما بحيث يكون كلّ قسم مِن الأقسام مختوما بنفس حرف السَّجعة ، وهو ما يسميه النقاد بالترصيع[٤]

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة (أ ت ى)

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة (ح ل ل)

(٣) راجع : ما ذكره الطاهر بن عاشور عند قوله تعالى : ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى . ينظر : التحرير والتنوير ١٦ / ٢٧٥ .

(٤) قالوا : إذا كان تقطيع الأجزاء أو شبيها بالمسجوع فذلك هو الترصيع ونسب ذلك لقدامة . ينظر : العمدة لابن رشيق ٢ / ٢٦ .

ومِن ذلك ما وقَّعه المأمون إلى علي بن هشام في أمر تظلم : مِن علامة الشَّريف أن يظلم مَن فوقه ، ويظلمه مَن دُونه ؛ فأي الرجلين أنت؟ (١)

فترى المأمون قد استغرق حال الشَّريف في وصفين اثنين في تقسيم بديع رافقه السَّجع كما ترى ، إمَّا كونه ظالما لمن فوقه ، وإمَّا كونه مظلومًا لمَن دُونه، وليس لهما ثالث . وكلا الوصفين (الظالمية والمظلومية) حسن للشريف .

ومن أمثلة التوقيعات التي تجلت فيها هذه الخاصية البلاغية كذلك ما وقعه عبد الملك بن مروان وقد كتب إليه الحجاج يخبره بسوء طاعة أهل العراق وما يقاسي منهم ويستأذنه في قتل أشرافهم فوقع له : إنَّ مِن يُمن السَّائس أنْ يأتلف به المُختلفون ، ومِن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون (٢)

فليس للسائس الذي يدير شؤون رعيته معهم غير هذين الحالين : تيمّنهم به بأن يكون في مقدوره جمع اختلافهم ولم شملهم ، أو تشاؤمهم منه بأن يتفرَّق شملهم ويتبدَّل حالهم مِن الائتلاف إلى الاختلاف .

وحُسن التَّقسيم ــ كما ترى ــ جاوره التقابل وقد تزيَّا التوقيع بثوب السَّجع القشيب ، فالموقِّع أحسن صياغة توقيعه ، إذ إنَّ التوقيع على وجازته حمل معاني جليلة شريفة تعدّ أساسا لشكل العلاقة بين السَّائس والمسُوس .

رحم الله الدكتورة منيرة فاعور القائلة: "التوقيعات نصوص جمعت بين حُسن الصِّياغة وخطر المضمون من ناحية، وفضل صاحبه وسمو ما يدعو إليه مِن ناحية أخرى وهي بذلك تعد دعوة للناس إلى تعلمها وتمثلها والاحتكام إليها"(٣)

---

(١) ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٩٨

(٢) ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٨٩

(٣) فن الطباق في أدب التوقيعات د منيرة فاعور ص ١٥٢ ــ مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ــ جامعة دمشق ــ عدد ٢٠١٤ م .

ومِن ذلك أيضًا : ما وقَّعه الصَّاحب بن عباد ، وقد رُفع إليه كتاب فيه : إنَّ إنسانا هلك ، وترك يتيما ، وأموالا جليلة لا تصلح لليتيم ، وقصد الكاتب إغراء الصَّاحب ، فأخذها [١] فوقع الصَّاحب فيها : الهالك رحمه الله ، واليتيم أصلحه الله، والمال ثمرة الله ، والسَّاعي لعنه الله ! [٢]

فترى التوقيع قد اشتمل على مظاهر بلاغيَّة يُمكن اعتبارها سمة لأدب التوقيعات ، أولها : هذا التقسيم البديع الذي استقصى فيه الصَّاحب العناصر التي كانت عماد الرِّسالة التي رُفعت إليه (الهالك ، اليتيم ، المال) ، وزاد الصَّاحب عليها (السَّاعي) الذي كان غرضه إغراء الصَّاحب بهذه الأموال ، ومِن هُنا ظهر مدى التَّناسُب اللفظيّ بين الرِّسالة وتوقيع الصَّاحب .

وثانيها : تناسُب أجزاء التقسيم في البنية التركيبيَّة ، مع ما فيها مِن جمال الإيقاع ، وهذا الجمال منشؤه ختم كلّ قسم مِنها بلفظ الجلالة ، تأمَّل :

الهالك رحمه الله

اليتيم أصلحه الله

المال ثمرة الله

السَّاعي لعنه الله

وثالثها : تناسُب الجُمل كلّها في نوع البناء ، حيث جاءت الجمل الأربع كلّها اسمية دالَّة على الثبوت والدوام ، في حين تقاربت بنية المُسند في ثلاث منها حيث كان المُسند فعلا ماضيا (رحمه الله ــ أصلحه الله ــ لعنه الله) .

---

(١) أي : الرسالة .

(٢) ينظر : زهر الأكم في الأمثال والحكم ٢ / ٢٢٠ .

هذا ، ومِن التوقيعات الأدبية التي تجلَّت فيها سمات التقسيم البلاغية مِن تناسُب البنية التركيبيَّة وسجعها : ما وقَّعه كسرى في رقعة مدح : طُوبى للممدوح إذا كان للمدح مستحقا ، وللداعي إذا كان للإجابة أهلا [١]

ثمَّ إنَّ التوقيع قد جاء ــ وذلك كثير ــ قد جاء تقسيمه في ثوب الشَّرط ، وتجلَّت هذه الخاصية في هذا التوقيع وفي قول هشام بن عبد الملك السابق الــذي وقعه في قصة متظلّم : أتاك الغوث إنْ كنت صادقاً ، وحلَّ بــك النّكــال إنْ كنــت كاذباً.

(١) ينظر : العقد الفريد ٤ / ٣٠٦

المطلب السَّادس :

تصدير التوقيع بفعل الأمر للواحد [١] .

الأمر أحد أساليب الإنشاء ، اختصت به ــ بنيــة وتركيبــا ــ التوقيعــات الأدبيَّة ، حيث يرى مَن يرفُل في أدب التوقيعات حضورا لافتا للفعل بوجه عام إذا قورن بنظيره الاسم .

ثمَّ إنَّه ممَّا يلمح في بناء الجملة الفعلية هنا ويشكل خصيصــة بلاغيــة ، وظاهرة أسلوبية : كثرة تصديرها بفعل الأمر للواحد ؛ ذلك لأنَّه قد غلــب علــى التوقيعات صدورها مِن الأعلى إلى الأدنى ، فالتوقيع في هذا الباب يمثل صــرخة الموقِّع إلى الموقَّع له حتَّى لكأنَّك مع خفة بنائه تسمع حينا لجلجلة قذيفة ، ويحمل

---

(١) حقيقة الأمر : طلب فعل غير كف على جهة الاستعلاء ، والمراد بالاستعلاء : طلب العلــو بمعنى عد الآمر نفسه عاليا بإظهار الغلظة سواء كان عاليــا فــي نفســه أو لا . ينظــر : مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي (ضمن شروح التلخيص) ٢ / ٣١١ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت .

وللأمر صيغ أربع :

١ ــ فعل الأمر ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (البقرة : ٤٣)

٢ ــ المضارع المقترن بلام الأمر ، نحو ليضرب زيد ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ ﴾ (الطلاق : ٧)

٣ ــ اسم فعل الأمر ، نحو نزال ودراك ، ومن ذلك قولــه تعــالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ (المائدة : ١٠٥)

٤ ــ المصدر النائب عن الفعل ، نحو قوله تعــالى : ﴿ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (الملك : ١١)

كذلك الأمر بين جنباته في أدب التوقيعات جانبا من النُّصح والإرشاد حينا ، وجانبا من الزَّجر والتقريع ، أو العتاب أو الإنكار حينا آخر .

من أبرز سمات أسلوب الأمر في أدب التوقيعات : كثرة تصديرها بفعل الأمر للواحد خاصَّة مِن بين صيغ الأمر ، وبناؤه على الخِفَّة ، وخفة البنية تلائم إلى حدّ كبير مقام المُوقِّع من علو الشأن وارتفاع مكانته ، والغرض الذي سيق التوقيع لأجله ، وكذلك حال الموقَّع له ، حيث إنَّ الأوامر تحمل أحيانا بين طياتها شكلا مِن أشكال التَّعنيف والتبكيت والزَّجر .

ومن هذه التوقيعات التي تجلَّت فيها بوضوح هذه السمات ما وقَّعه عمر بن الخطاب ، وقد كتب إليه سعد بن أبي وقاص في بُنيان يبنيه ، فوقَّع عمر بن الخطاب في أسفل كتابه : ابن ما يُكنك من الهواجر وأذى المطر [(١)] فالتوقيع تجلَّت فيه السمات التي أسلفنا عدَّها ، ونوجزها في :

أولا : تصدير التوقيع بفعل الأمر للواحد مِن بين صيغ الأمر .

ثانيا : بناء الفعل على الخفَّة وسهولة البناء التي تناسب إلى حدّ كبير حال الموقِّع الذي يغلب عليه انشغاله الشديد بأمور رعيته ، وكذا حال الموقَّع له ، والغرض الذي سِيق التوقيع لأجله ، فلا تحسُن التوقيعات بوجه عام إذا لم يكن الإيجاز والتركيز وتكثيف المعاني هو العماد الرَّئيس الذي بنيت عليه .

وتلمس في هذا التوقيع شدة ابن الخطاب وقوته وصرامته مع عماله ، حيث تشمّ فيه معنى التَّعنيف كما ترى ، وكأنَّه يُخْبره ــ لزُهده ــ أنَّ تشييد الدور أمر قبيح ، ينبغي أن يزهد فيه ، ويُمكن حمل الأمر هنا على حقيقته ، حيث يكون غرض سيدنا عُمر ــ رضي الله عنه ــ من قوله مُوقِّعا : (ابن ما يكنك من

(١) ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٨٧

الهواجر وأذى المطر) الاقتصار على ما تشتدّ إليه الحاجة مِن دون سرف أو تبذير .

فمن سمات الأمر في أدب التوقيعات : خروج الأمر إلى معاني مجازية ، وعدم اقتصارها على إفادة المعنى الحقيقي لظاهر أسلوب فعل الأمر رغم صدورها من الأعلى غالبا إلى الأدنى.

ومن التوقيعات التي تزيَّا الأمر فيها ثوب النَّصيحة والإرشاد والموعظة الحسنة كذلك ما وقَّعه عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص : كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك [١]

ومثله في خروج الأمر في ثوب النصيحة : ما وقَّعه جعفر بن يحيى إلى عامل فارس في رجل كتب إليه بالوصاة (مشتقة من وصى بمعنى الوصية) : كن له كأبيه لو كان مكانك [٢]

---

(١) ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٨٧

ــ ومنها : توقيع عمر بن عبد العزيز إلى عامله بالمدينة وسأله أن يعطيه موضعا يبنيه فوقَّع: كُن من الموت على حذر . ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٩١

(٢) ينظر : العقد الفريد ٤ / ٣٠٢

ولأسلوب الأمر في أدب التوقيعات سمات : منها تكرّر الأوامر [١] ، وارتباط الأمر بجزاء حينا [٢] ، ليكون الجزاء حافزا قويا يدفع الموقع له إلى تنفيذ المأمور به ، وارتباط الأمر بعلة مناسبة حينا آخر [٣] ، إذ العلة إحدى وسائل الإقناع .

وهكذا استطاعت الدِّراسة مِن خلال ما عرضت له من نماذج إبراز بعض السمات البلاغيَّة لأدب التوقيعات .

---

(١) ومِن ذلك ما وقَّعه هشام بن عبد الملك إلى عامله على العراق في أمر الخوارج : ضع سيفك في كلاب النار وتقرَّب إلى الله بقتل الكفار . ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٩٢

ـ ومنها : ما وقَّعه عمر بن عبد العزيز وقد كتب بعض العمال إليه يستأذنه في مرمة مدينة فوقع في أسفل كتابه : ابنها بالعدل ونقِّ طرقها مِن الظلم ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٩٠

ـ ومنها : ما وقَّعه عمر بن عبد العزيز وقد كتب إليه صاحب العراق يخبره عن سوء طاعة أهلها فوقع له : ارض لهم ما ترضى لنفسك وخذ بجرائمهم بعد ذلك ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٩٠

(٢) ومِن ذلك ما وقَّعه عمر بن عبد العزيز في رقعة محبوس : تب تطلق ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٩١

ـ ما وقَّعه المنصور وقد كتب إليه عامله بمصر يشكو نقصان نهر النيل ، فوقَّع على الكتاب بقوله : " طهِّر عسكرك مِن الفساد يعطك النيل القياد " ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٩٥

ـ ومنها : ما وقعه الفضل بن سهل إلى صاحب الشرطة ترفق توفق ينظر : العقد الفريد ٤/ ٣٠٣

(٣) ومن ذلك ما وقعه الحجاج بن يوسف إلى قتيبة : خذ عسكرك بتلاوة القرآن فإنه أمنع من حصونك ينظر : العقد الفريد ٤ / ٣٠١

ـ ومنها : ما وقعه هارون الرشيد إلى السندي بن شاهك : خف الله وإمامك ، فهما نجاتك ينظر : العقد الفريد ٤ / ٢٩٧ ومثله كذلك ما وقَّعه جعفر بن يحيى في قصة رجل شكا بعض خدمه : خذ بأذنه ورأسه فهو مالك ينظر : العقد الفريد ٤ / ٣٠٢

كما كان للتقابُل [١] بمفهومه الواسع في أدب التوقيعات حُضُور فاعل ، لما للجمع بين المتضادات من توكيد المعاني ، وتوضيحها ، وتقريرها ، وتثبيتها في النفوس ، وقد أحسن المُوقِّعون توظيفه أتمّ توظيف ، فهو لا يقل بحال عن السمات التى عرضنا لها .

---

(١) تجمل الدكتورة منيرة فاغور سمات الطباق في أدب التوقيعات قائلة : إن الطباق أتى في كلام الموقعين استجابة لفطرتهم الصافية ، وسليقتهم المحكمة من دون قصد إليه أو شغف به ، وهذا يؤكد أنهم كانوا متمكنين من الأدوات اللفظية والمعنوية التي لا يتسنى الحصول عليها لغير أعلام اللغة ورجالها المتمرسين .

ـ وظهر بوضوح حضور الطباق في التوقيعات ، لكن هذا الحضور لم يتعمده الموقعون ، فلم يكن بقصد الزخرف والزينة ، بل من أجل مهمات محددة منها : إثبات قضية ما أو نفيها .. وقد ظهرت قيمة ما يحققه من تنشيط الفعالية الإدراكية وخلق نوع من التنغيم الخفي والتوازن المنسجم في العبارة .

ـ ثم إن الطباق رشح بكثير من المحسنات اللفظية في سياق واحد ، وقد ظهر تعاضد اللفظ والمعنى لأداء الغرض المقصود ولإحداث الجمال والإمتاع في التوقيع . ينظر : فن الطباق في أدب التوقيعات ـ د منيرة فاعور ـ ص ١٥٢ـ مجلة جامعة دمشق ـ العدد ٢١ ـ ٢٠١٤ م .

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

الخـاتـــمـــة

أَحْمَـــــدُكَ اللَّهُـــــمَّ ذَا الإفْضَـــــالِ ∴ حَمْـــداً عَلَـــى التَّكْـــرارِ والتَّـــوالِي

ثُـــمّ الصَّـــلاَةُ والسَّـــلامُ أَبَـــداَ ∴ عَلَـــى النَّبِـــيِّ الهاشِـــمِي مُحَمّـــدا

وَآلِـــــهِ أَئِمّـــــةِ العِبـــــادِ ∴ وَصَـــحْبِه الأَفاضِـــل الأمْجـــادِ[1]

أمـَّا بعـــد :

في ظلال البحث عن السِّمات البلاغيَّة لأدب التوقيعات وقفتْ هذه الدِّراسة على ملاحظات مُهمَّة مِن شأنها فتح الباب أمام المشتغلين بهذا الجِـنس الأدبـيّ الذي يسع الباحث القول عنه بأنَّه ــ في إطار الدِّراسات البلاغيَّة ــ لا يـزال درَّة صحيحة التدوير لم تثقب ، ومُهرة لم تركب ، ويمكنني أن أوجز بعضها في أمور:

ــ التوقيعات الأدبية جِنس أدبي رفيع يقصد به ــ في أخصر لفظ ــ الأجوبة على الرَّسائل .

ــ عكَست التوقيعات الأدبية ثقافة الموقِّعين ، وأبرزت مدى بلاغـتهم ، وكشـفت عن موهبتهم ، وبيَّنت كيف أنَّهم كانوا يمتلكون ناصية البيان .

ــ للتوقيعات الأدبية موقع جليل في النّفوس ، إذ يُمكن أن تتربَّى عليهـا نُفُـوس النَّاشئة والصغار ، وذلك لما تشتمل عليه من توجيهات تـدعو إلـى مكـارم الأخلاق .

ــ التوقيعات جنس أدبي يعكِس الفطرة العربية الخالِصة فـي أبهـى صُـورها ، وأصدق مظاهرها ، حيث يترجم مدى ما وصل إليه أصحاب التوقيعات من قدرة فائقة على اختيار الألفاظ المناسبة والمعاني الثَّرة ، فقد استطاعوا أن ينتقـوا

---

(١) الأبيات من بحر الرجز ، وهي للإمام الشوكاني رحمه الله .

الألفاظ التي تفي بالمعاني والتي تناسب الغرض الذي سيقت لأجله ، ولم تسجل هذه الدِّراسة موضعا وحيدا جانب فيه الموقِّعون الصَّواب .

ـ اختصَّت التوقيعات الأدبيَّة بِنية وتركيبا بسمات بلاغية ، ومظاهر أسلوبية ، لا يخطئها بحال النَّاظر المتأمِّل ؛ إذ إنَّ لكلّ جِنس أدبيّ بعض السمات البلاغية والمظاهر الأسلوبية التي تميزه عن غيره .

ـ مِن أبرز الخصائص أو السمات البلاغيَّة لأدب التوقيعات وأتمِّها اتصافا بناؤها على الإيجاز والتركيز وتكثيف المعاني حتى إنَّه لو قال قائل : إنَّ الإيجاز ظاهرة أسلوبية لفن النثر عامَّة ، والتوقيعات خاصَّة لم يُبعِد ، ولم يخرج عن جادّة الصَّواب ، ويشهد لذلك ما ذكره ابن سنان عن جعفر بن يحيى وهو مَن يضرب به المثل في التوقيعات أنَّه كان يقول لكتَّابه : إنْ استطعتم أن يكون كلامكم كلّه مثل التوقيع فافعلوا .

ـ بل كان الإيجاز العماد الرئيس الذي اتكأ عليه الموقعون في توقيعاتهم ، حتَّى يمكن القول أنه كان أبًا وأما لغيره من الفنون البلاغية والمظاهر الأسلوبية التي جاورته ، والتي أضفى عليها كثيرا من بهائه ورونقه ، وأكسبها مزيَّة التعرِّي من التكلُّف .

ـ فطن الموقعون إلى قيمة التقديم ، وجليل أسراره البلاغية ، وكيف أنَّه يضفي على الكلام من سِحره ورَونقه فكان عمادا رئيسا لأدب التوقيعات حيث كان للتقديم أثر بيِّن في التعبير عن مقصود المُوقِّع وأبرزت التوقيعات تنوع صوره وتعدد أشكاله .

ـ اكتست التوقيعات الأدبية ثوب الاقتباس والتضمين القشيب فازدانت به في كل عصر ومصر ، فالموقِّع إذ يقتبس مِن النَّظم الكريم خاصة فإنَّما كان يزيِّن توقيعه بعقود الدُّر والياقوت .

- أبرزت الدراسة في هذا البحث أن الاقتباس في أدب التوقيعات خاصية بلاغية اقتضاها المقام ولم تكن حلية ظاهرة الغرض منها الزينة الشكلية فحسب .
- القرآن الكريم والشعر العربي خاصة كانا رافدين مهمَّين لأدب التوقيعات لما للغة القرآن الكريم والشعر مِن بديع التأثير في المتلقي وقدرتهما الفائقة على الإقناع والإمتاع في آن واحد .
- من سمات الاقتباس في أدب التوقيعات ندرة التوقيعات الأدبية التي اتخذت من البيان النبوي مادة للاقتباس .
- الاقتباس في باب التوقيعات قد تنوَّعت صوره وتعدَّدت أشكاله ، فالموقِّع يقتبس ما يتلاءم مع مقام التوقيع وحال الموقَّع له ، فتجده حينا يقتبس آية بأكملها ، وتارة يقتبس ذيل الآية فحسب ، وتارة أخرى يقتبس صدرها وهكذا .
- من سمات الاقتباس في باب التوقيعات عدم النَّص على مُنشئ الاقتباس كأن يقول الموقِّع : قال الله تعالى ، إن كان المُقتبَس من القرآن الكريم مثلا .
- مِن سمات التَّضمين في أدب التوقيعات : اختيار الأبيات السَّائرة التي تشبه الأمثال ، واقتصار التضمين تارة على شطر بيت بحيث يكون للموقع الشطر الآخر .
- التضمين في أدب التوقيعات يعكس ثقافة الموقِّعين الواسعة بالشعر العربي ، ويبرز قراءاتهم الثرة العميقة ، ويبين عن موفور عنايتهم بشعر العرب ومدى حفظهم له ، وأنَّه عندهم من الأهمية بمكان .
- عدَّ المُوقِّعون السجع مُكوّنا ورافدا مهما لأدب التوقيعات لما للسَّجع من مظاهر جَمالية عديدة ، منها : موسيقاه العذبة التي تلعب بآذان مستمعيها ما يجعل النفس تهش لعبارته وتطرب ، فتأثيره في النفوس لا ينكر بحال .

ـ من السمات البلاغية للسجع في أدب التوقيعات وقوع السجع بلا كلفة في أدب التوقيعات وهو أمر ظاهر لا يحتاج إلى دليل ؛ ذلك لأنَّ ألفاظ التوقيعات موجزة جَدًّا ، وفيها تكون تجربة الموقِّعين صادقة ما يجعل المعاني حرَّة تختار لأنفسها الألفاظ التي تُلائمها .

ـ كما كان تعادل السَّجعات ، وورودها متقاربة في الطُّول أبرز السمات البلاغية التي لم تفارق السَّجع بحال .

ـ من السمات البلاغية لأدب التوقيعات البلاغية حسن التقسيم ، ومن سماته هنا اقتران حسن التقسيم بغيره من ألوان البلاغة ولاسيَّما الجناس ، وتناسُب أجزاء التقسيم في البنية التركيبيَّة وكذلك تناسُب جُمل التقسيم كذلك في نوع البناء الاسمي والفعلي .

ـ الأمر أحد أساليب الإنشاء ، اختصت به ـ بنية وتركيبا ـ التوقيعات الأدبيَّة ، حيث يرى مَن يرفُل في أدب التوقيعات حضورا لافتا للفعل بوجه عام إذا قورن بقسيمه الاسم .

ثمَّ إنَّه ممَّا يلمح في بناء الجملة الفعلية هنا ويشكل خصيصة بلاغية ، وظاهرة أسلوبية : كثرة تصديرها بفعل الأمر للواحد ، ولأنَّه قد غلب على التوقيعات صدورها مِن الأعلى إلى الأدنى حتَّى لكأنَّك مع خفة بنائه تسمع حينا لجلجلة قذيفة .

ـ من أبرز سمات أسلوب الأمر في أدب التوقيعات : كثرة تصدير التوقيع بفعل الأمر للواحد خاصَّة مِن بين صيغ الأمر ، وبناؤه على الخِفَّة والاقتصاد في بنائه ، وكذلك ارتباطه بجزاء حينا ، وبعلة مناسبة حينا آخر .

وختاما أقول ما قاله شيخ البلاغيين : " وإنك لَتُتْعِبُ في الشيء نفسَكَ ، وتكدُّ فيه فكرَكَ ، وتجهد فيه كلَّ جَهدك ، حتى إذا قلتَ قد قَتَلْتُه علماً ، وأحكمتُه فهماً كنتَ الذي لا يزالُ يتراءى لك فيه شُبهةٌ ، ويعرِضُ فيه شكٌّ " (١)

أتوجه إلى الله ضارعا أن يكون بحثي هذا خالصا لوجهه الكريم ، وأن يثيبني عليه ، وأن يتجاوز ــ سبحانه بمنِّه وكرمه ــ عني وعن كل ما زلت به القدم ، وأن يرضى عن أشياخي الأكارم من رجالات البلاغة العربية ، وأن يجعلهم من السعداء في الدارين ، إنَّه ولي ذلك ومولاه ، والحمد لله رب العالمين .....

جَزَى اللهُ خَيرًا مَن تَأمَّل صَنعَتِي ∴ وقابلَ مَا فِيها مِن السَّهْوِ بِالعَفوِ

وأصلحَ مَا أخطأتُ فيه بفضْلِهِ ∴ وفطنتِه ، أَسْتغفرُ الله مِن سَهْوِي(٢)

(١) دلائل الإعجاز ص ٥٥١ .

(٢) البيتان ذكرهما العلامة محمد الأمين بن عبد الله الهرري وهما لغيره . ينظر : حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للهرري ٣٢ / ٤٩٧ ــ ط : دار طوق النجاة ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢١ ه ــ ٢٠٠١ م .

فهرس المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم

أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ــ تعليق : الشيخ : محمود محمد شاكر ــ ط : دار المدني بجدة ــ د ت .

الأصول في النحو لابن السراج النحوي ــ تح : د عبد الحسين الفتلي ـــــ ط : مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط : الثالثة ــ ١٩٨٨ م .

الأعلام ــ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ــ لخير الدين الزركلي ــ ط : دار العلم للملايين ــ الطبعة : الخامسة عشرة ــ ٢٠٠٢ م .

الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ــ تح : د : إحسان عباس ــ و د: إبراهيم السعافين ــ و بكر عباس ــ ط : دار صادر ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ٢٠٠٢ م .

الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة ــ دراسة دلالية جمالية ــ د خالد كاظم حميدي ــ كلية الشيخ الطوسي ــ جامعة النجف .

الإكسير في علم التفسير لسليمان بن عبد القوي الطوفي ــ تح : د : عبد القادر حسين ــ ط : مكتبة الآداب (علي حسن) ــ القاهرة .

الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ــ راجعه : هيثم خليفة الطعيمي ــ ط : المكتبة العصرية ــ بيروت ــ ١٤٣٢ ه ــ ٢٠١١ م .

الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ــ تح : الشيخ بهيج غزاوي ــ ط : دار إحياء العلوم ــ بيروت ــ ط : رابعة ــ ١٤١٩ هـ ــ ١٩٩٨ م .

البحر المحيط لابن عطية الأندلسي ــ تح : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ــ والشيخ علي محمد معوض ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢٢ هـ ــ ٢٠٠١ م .

البداية والنهاية لابن كثير ـــ ط : مكتبة المعارف ــ بيروت ــ د ت .

البرهان في علوم القرآن للزركشي ــ تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ــ ط : دار المعرفة ــ بيروت ــ ١٣٩١ هـ .

بلاغة الإيجاز في الشعرية العربية ــ رسالة ماجستير للباحث يوسف بديدة ــ كلية الآداب ــ جامعة الحاج لخضر ــ الجزائر ــ ٢٠٠٩ م .

البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد ، للدكتور/عبد الرحمن حسن حَبَنَّكة الميداني ــ ط : دار القلم ــ دمشق ــ ط : أولى ــ ١٤١٦ هـ ــ ١٩٩٦ م .

بلاغة الكتاب في العصر العباسي ــ دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب ــ د/ محمد نبيه حجاب ــ ط : مكتبة الطالب الجامعي ــ مكة المكرمة ــ ط : ثانية ــ ١٤٠٦ ه ــ ١٩٨٦ م .

البيان والتبيين للجاحظ ــ تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ــ ط : مكتبة الخانجي ــ القاهرة ــ ط : سابعة ــ ١٤١٩ ه ــ ١٩٩٨ م .

تاريخ الأدب العربي ــ العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ــ ط : دار المعارف ــ مصر ــ ط : ثانية ــ من دون تاريخ .

تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات ــ ط : دار نهضة مصر ــ الفجالة ــ القاهرة .

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي ــ تح : د : عمر عبد السلام تدمرى ــ ط : دار الكتاب العربي ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٧م .

التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور ــ ط : دار سحنون ــ تونس ــ ١٩٩٧ م .

تفسير أبي السعود ــ ط : دار إحياء التراث العربي ــ بيروت .

التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للرازي ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢١ هـ ــ ٢٠٠٠ م .

التقديم والتأخير في التوقيعات (دراسة نحوية) للباحث : عيد سالم العرجان ــ رسالة ماجستير ــ جامعة مؤتة ــ الأردن ــ ٢٠٠٦ م ــ

جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ــ ط : دار الفكر ــ بيروت ــ ١٤٠٨ هـ ــ ١٩٨٨ م .

حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للهرري ــ ط : دار طوق النجاة ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢١ ه ــ ٢٠٠١ م .

الحيوان للجاحظ ــ تح : عبد السلام محمد هارون ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ ١٤١٦ هـ ــ ١٩٩٦ م .

خاص الخاص لأبي منصور الثعالبي ــ شرحه وعلق عليه : مأمون بن محيي الدين ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤١٤ ه ــ ١٩٩٤ م .

خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي ــ ط : دار ومكتبة الهلال ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٩٨٧ م .

خصائص الحروف العربية ومعانيها ــ حسن عباس ــ ط : منشورات اتحاد الكتاب العرب ــ ١٩٩٨ م .

الخطابة لأرسطو طاليس ــ تح : عبد الرحمن بدوي ــ الترجمة العربية القديمة ــ ط : وكالة المطبوعات بالكويت ودار القلم ببيروت ــ ١٩٧٩ م .

دلالات التراكيب ــ دراسة بلاغية ــ د محمد محمد أبو موسى ــ ط : مكتبة وهبة ــ القاهرة ــ ط : ثالثة ــ ١٤٢٥ ه ــ ٢٠٠٤ م .

دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ــ قرأه وعلق عليه : أبو فهر محمود محمد شاكر ـــ مطبعة المدني ــ القاهرة ــ ١٤١٣هـ ـــ ١٩٩٢ م .

ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ من دون تاريخ .

زهر الأكم في الأمثال والحكم للحسن اليوسي ــ تح : د / محمد حجي و د / محمد الأخضر ــ ط : دار الثقافة ــ المغرب ــ ط : أولى ــ ١٤٠١ ه ــ ١٩٨١ م .

سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٠٢ هـ ــ ١٩٨٢ م .

سير أعلام النبلاء للذهبي ــ تح : شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي ــ ط : مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط : تاسعة ــ ١٤١٣ هـ .

صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ــ تح : عبد القادر زكار ــ ط : وزارة الثقافة ــ دمشق ــ ١٩٨١ م .

الصبغ البديعي في اللغة العربية د أحمد إبراهيم موسى ــ ط : دار المكتبة العربية ــ القاهرة ــ ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٩ م .

الطراز لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي ــ ط : المكتبة العصرية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢٣ هـ .

العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ــ تحقيق : د عبد المجيد الترحيني ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٠٤ هـ ــ ١٩٨٣ م .

العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق ــ تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ ط : خامسة ــ ١٤٠١ ه ــ ١٩٨١م.

فن الطباق في أدب التوقيعات ــ د منيرة فاعور ــ مجلة جامعة دمشق ــ العدد ٢١ ــ ٢٠١٤ م .

الكشاف للزمخشري ــ تح : عبد الرزاق المهدي ــ ط : دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ د ت .

الكشكول ــ بهاء الدين العاملي ــ تح : السيد محمد السيد حسين المعلم ــ ط : المكتبة الحيدرية ــ قم المقدسة ــ ط : أولى ــ ١٤٢٧ هـ .

لسان العرب لابن منظور ــ ط : دار صادر ــ بيروت ــ ط : أولى ــ من دون تاريخ .

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير ــ تح : محمد محي الدين عبد الحميد ــ ط : المكتبة العصرية للطباعة والنشر ــ بيروت ــ١٩٩٥م .

مجلة جامعة الإمام ــ العدد ٤٢ ــ ربيع الآخر ١٤٢٤ هـ ــ بحث بعنوان : الاقتباس عند البلاغيين ــ أنواعه وأحكامه د عبد المحسن عبد العزيز العسكر .

مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري ــ تح : محمد محيى الدين عبد الحميد ــ ط : دار المعرفة ــ بيروت .

مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي) للإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي ــ تح : سيد زكريا ــ ط : مكتبة نزار مصطفى الباز .

المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط: الثانية ــ ١٩٨٧ م .

معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ــ تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ــ ط : عالم الكتب ــ بيروت ــ ١٣٦٧ ه ــ ١٩٤٨ م .

معجم البلدان لياقوت الحموي ــ ط : دار الفكر ــ بيروت .

مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهاني ــ تح : صفوان عدنان داوودي ــ ط : دار القلم ــ دمشق ــ ط : رابعة ــ ١٤٣٠ ه ــ ٢٠٠٩ م .

مقدمة ابن خلدون ــ ط : دار القلم ــ بيروت ــ ط : خامسة ــ ١٩٨٤ م .

منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ــ تقديم : محمد الحبيب ابن الخوجة ــ ط : دار الغرب الإسلامي ــ بيروت .

مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي (ضمن شروح التلخيص) ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت .

نظم الدرر للبقاعي في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعي ــ ط : دار الكتاب الإسلامي ــ القاهرة .

يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي ــ تح : د : مفيد محمد قمحية ــ ط : دار الكتب العلمية ــ لبنان ــ ط ــ أولى ــ ١٤٠٣ هـ ــ ١٩٨٣ م .

فهرس الموضوعات

م	الموضـوع	رقم الصفحة
١	**ملخص البحث**	٣٣٩٧
٢	**Abstract**	٣٣٩٨
٣	**المقدمة** .	٣٤٠١
٤	**التمهيد** : إطلالة يسيرة على أدب التوقيعات .	٣٤٠٥
٥	**المبحث الأول** : السمات البلاغية لأدب التوقيعات	٣٤٠٩
٦	**المطلب الأول** : الإيجاز والتركيز .	٣٤١٠
٧	**المطلب الثاني** : التقديم .	٣٤٢٠
٨	**المطلب الثالث** : الاقتباس والتضمين .	٣٤٢٧
٩	**المطلب الرابع** : السَّجع المطبوع .	٣٤٤٢
١٠	**المطلب الخامس** : حسن التقسيم .	٣٤٥١
١١	**المطلب السادس** : تصدير التوقيع بفعل الأمر للواحد .	٣٤٥٧
١٢	**الخاتمة**	٣٤٦٢
١٣	**قائمة المصادر و المراجع**:	٣٤٦٧
١٤	**فهرس الموضوعات**	٣٤٧٣

بحمد الله